شهرٌ

وأربعُ ليالٍ منَ العذابِ

كتابة وتصميم غلاف: ملك وليد بكر

تدقيق وتحرير: إبراهيم محمد إبراهيم

تنسيق داخلي: وليد محمد كامل بكر

تاريخ النشر: ٢٠٢٣

عدد الصفحات: ٦٢

شهرٌ
وأربعُ ليالٍ منَ العذابِ!

نوفيلا
ملك وليد بكر

المقدمةَ

في أحدِ الأيامِ، كانَ الطقسُ باردًا، وكانتْ السماءُ ملبدةً بالغيومِ، وأرادتْ السحبُ أنْ تمطرَ ولكنها لمْ تستطعْ، وغردتْ العصافيرُ وهيَ تُنشِدُ لحنًا حزينًا، وكانَ الجوُ كئيبًا.. في أحدِ شوارعَ لندنَ العريقةِ، العتيقةِ، التي دلتْ مبانيها على عظمةِ البناءِ الهندسيِ، والتي احتفظتْ برونقها إلى مدةٍ طويلةٍ من الزمانِ، وازدحمتْ بالعديدِ من العرباتِ التي جرَّتها الخيولُ، والناسُ السائرةُ على الأقدامِ، وفيها العديدُ من دكاكينِ التجارِ الأغنياءِ منهمْ والفقراءِ، المتراصَّةِ بَعضها بجوارِ بعضٍ، والتي يمرُ بها الباعةُ الجائلون، وتسمعُ فيها قهقهاتِ السكارى، وناقوسَ الكنيسةِ.

أيْ في شارعٍ تعلو فيهِ الضجَّةُ، وتسمعُ فيهِ شتائمَ الحُوذيينَ، ظلَ طريقًا مهمًا منذُ العصرِ الرومانيِ، وأنشئَ بطولِ طريقِهِ العديدُ من الشركاتِ خلالَ العصورِ الوسطى..

وهوَ الشارعُ الذي اشتهرَ بسكنِ المؤلفينَ والناشرينَ فيهِ منذُ بدايةِ القرنِ السادسِ عشر حتى القرنِ العشرين، وقطنَ بهِ بعضُ الفقراءِ وأصحابُ الحاناتِ ورجالُ الكنيسةِ، وبنيتْ فيهِ كنيسةَ المعبدِ وكنيسةَ القديسِ برايدْ، وامتلأَ بالآثارِ والتماثيلِ، والنصبِ التذكاريةِ لبعضِ الصحفيينَ البريطانيينَ؛ مثل (صمويلْ بيبس) والذي تمَّ تعميدُهُ في كنيسةِ القديسةِ العروسِ بنفسِ الشارعِ .

وهوَ الشارعُ الذي ذُكرَ في العديدِ من الأعمالِ الأدبيةِ للكاتبِ البريطانيِ (تشارلزْ ديكنزْ) .. حتى إذا حلتْ الثمانينياتُ قلَّ عددُ سكانِ مبانيهِ، وهدأتْ الضجَّةُ التي لطالما سُمِعَتْ فيهِ، لكنْ معَ ذلكَ؛ لمْ تُغلقْ الحاناتُ لشعبيتِها، ولمْ تُغلقْ بيوتُ الفسقِ أوْ صالات القُمارِ!، ولعلَ هُنا يكمُنُ البلاءُ الأكبرُ.

وأثناء سيري في ذلك الشارعِ، اصطدمتُ برجُلٍ عنْ طريقِ الخطأِ، وقدْ كانَ رجلاً غريبَ الأطوارِ، أثَّرَ الخمرُ قليلاً على رأسهِ حتى باتَ وجههُ محمرًا، وكانَ خارجًا لتوهِ من بابِ الحانةِ؛ فلهذا لمْ يستطعْ أنْ يلمَحني .. وحينَ اصطدمنا ببعضنا البعض سقطتْ الأكياسُ التي كنتُ أحمِلها من يدي، وسَقطتْ قبعتهُ أرضًا، ومما

جعلني أحِسُّ أنهُ رجلٌ مسكينٌ أنهُ أسرعَ يجمعُ معي الأشياءَ التي خرجَتْ من الأكياسِ، ونسيَ أنْ يأخذَ قبعتَهُ، وحاولَ أنْ يبتسمَ لي أوْ أنْ يلفظَ جملة " طابَ صباحُكَ يا سيدي"، ولكنَّهُ بدا مضطربًا، فنطقَ بكلماتٍ لا معنى لها، لعلَهُ تلعثمَ أثناءَ قولِها، فازدادَ خجلُهُ من نفسهِ أكثرَ فأكثر، وقررَ أنْ ينسحبَ جانبًا دونَ أنْ يقولَ شيئًا زائدًا، وبَدا لي أنَّهُ كانَ على عجلةٍ من أمرهِ، فلمْ أستطعْ أنْ أتأملَ ملامِحَهُ جيدًا آنذاكَ، وربما لوْ لمْ يتكررْ موقفٌ مشابهٌ لِمَا وقعَ بيننا يومئذٍ لما تعرفتُهُ أبدًا، لتغيرِ ملامحِ وجههِ من البؤسِ..

كنتُ أحرصُ على الذهابِ لشارعِ (فليت) للتجولِ وشراءِ حاجاتي الخاصةِ – رغمَ أنهُ كانَ بإمكاني أنْ آمُرَ خادمي بذلكَ – فإما كنت أراه في نفسِ الحانةِ، أوْ أراه يصطدمُ بآخرينَ دون أنْ يقولَ شيئًا، وهوَ يهرولُ كعادتهِ بنفسِ ملابسهِ إلى نفسِ الطريقِ الذي يسْلُكهُ دومًا.

وفي أحدِ الأيامِ، حين كنتُ جالسًا في مقهى بسيطٍ، أحتسي كوبًا من الشايِ، رأيتهُ أمامي، فسنحتْ لي الفرصةُ أنْ أخاطبَهُ بجملةٍ، فقلتُ لهُ: «لعلكَ لستَ بخيرٍ يا سيدي، ولعلَ هناكَ ما يشغلُ بالكَ،

ويعذبُ فؤادكَ، لتسيرَ كلَ يومٍ في هذا الشارعِ، دون حتى أنْ تعتنيَ بهندامكَ» فلمْ يسمعْ ما قلتهُ لهُ، إذْ كانَ ملتفتًا إلى عربةٍ عاديةٍ مرتْ بالشارعِ، جلستْ بداخلها سيدةٌ عجوزٌ، فوضعَ قبعتَه على الطاولةِ أثناءَ التفاتهِ، ثم جلس دونَ أنْ يدري على الكرسي القابع أمامي وهوَ لا يزالُ ينظرُ إلى الجهةِ الأخرى، فلما اختفتْ العربةُ من أمامِ ناظِريه؛ فوجئَ بأنهُ جلسَ على طاولةِ شخصٍ آخر دون استئذان، وكادَ يطلقُ صرخةً، ولعلهُ خشيَ من أنْ أكونَ قدْ فضحتُ أمرَهُ – الذي لمْ أكنْ أدري ما هوَ بعد – وسحبَ قبعتَهُ وكادَ يعودُ أدراجهُ، دون أنْ يحتسيَ شيئًا.

فتشبثْتُ بذراعهِ ثمَ أجلستهُ، وأمرتْ لهُ بفنجانٍ من الشايِ؛ لعلمي بأننا – نحنُ الإنجليز – إنما نفضِلهُ على القهوةِ كثيرًا، ونشعرُ بأنهُ يحدِثُ أثرًا كبيرًا في تعديلِ المزاجِ، وفي تهدئةِ الأعصابِ.

لقدْ كانَ الرجلُ يُدعى (فوردْ أوينْ)، وكانَ رجلاً طويلاً، أبيضَ البشرةِ، أسودَ الشعرِ والعينينِ، وكانَ لهُ شاربٌ صغيرٌ، ولحية قصيرةٌ، وبدا شابًا لمْ يبلغْ الثلاثينَ من عمرهِ، ومظهرهُ يُوحي بأنهُ شابٌ متحفِّظٌ، هادئٌ، مسالمٌ، لا ينقصهُ شيءٌ، ولا يشغَلهُ شيءٌ،

ولكنَّ عينيهِ تحكيانِ ألمًا ووجعًا لمْ يستطعْ لسانُهُ أنْ يتلفظَ بهما.. فلما سألتُهُ عنْ الحزنِ الذي لاحَ في وجههِ، وصارَ واضحًا من ملامحهِ، ابتسمَ لي ابتسامةً باردةً، ثمَ شكرني على فنجانِ الشايِ، وتناولَ قبعتَهُ ثانيةً، وارتدى قُفازَهُ، وانحنى بكثيرٍ من الاحترامِ، ثمَ استأذنَ للرحيلِ، ولمْ ينتظرْ ردًا على استئذانِهِ؛ لأنهُ كانَ قدْ انصرفَ.

ومن حسنِ حظي أنهُ لمْ يغِبْ عنْ عيني، فتبعتُهُ في الخفاءِ، حتى وصلتُ إلى مبنى قصيرٍ؛ وهوَ بيتٌ مكونٌ من أربعةِ طوابقَ، مدخلهُ مظلمٌ، وبدا غيرَ نظيفٍ، وكانَ بجانبهِ صندوقٌ كبيرٌ من القمامةِ، وشممتُ رائحةً كريهة، فقطْ لأني وقفت على مدخلِ البيتِ.. فما ظنكَ – عزيزي القارئ – بما وجدتُهُ بعدَ أنْ دخلتُه؟.

لقدْ كانتْ أرضيةُ البيتِ متعفنةً تمامًا، فقد وصلتْ القذارةُ التي كانتْ على الأرضِ إلى درجةِ أنها غطَّتْ الأرضياتِ، فلا يُعرَفُ – من شدةِ القذارةِ – ما لونُها.. لقدْ دخلَ (فوردْ) دونَ أنْ يهتمَ بملابسِهِ، فلمْ يحفلْ باتساخِ بنطالهِ الذي كانَ طويلاً عليه أكثر منَ اللازمِ، واتجهَ رأسًا إلى شقتهِ، التي كانتْ في الطابقِ الأرضيِ..

وكنتُ كلما تقدمتُ في سَيري خلفه تزداد الرائحةُ شدةً، حتى كدت أتقيأ منها، لكنِّي تابعتُ السيرَ خلفَه، وسرتُ في طرقةٍ طويلةٍ ضيقةٍ قليلاً، وجدتُ فيها العديدَ من الأبوابِ وسمعتُ فيها أصواتًا تداخلتْ ببعضها البعض، ثُمَ دخلَ صديقنا إلى غرفةٍ مظلمةٍ عاتمةٍ، فتبعتهُ بدوري، ولكنيِّ وقفتُ على عتبةِ البابِ، إذْ تركهُ مفتوحًا، وكانَ شباكُ الغُرفةِ مغلقًا، ووضِعَتْ عليهِ ستارةٌ بيضاءُ، فكانتْ الغرفةُ قليلةُ الإنارةِ، لا توجد فيها إلا شمعة وحيدة، حتى كادت الإضاءة أن تصير منعدمة..

وفورَ دخولِ (فوردْ) إلى غرفتِهِ؛ جَثى على ركبتَيهِ بالقرب من الفراش، ثم رفع غِطاءً وُضِعَ على شخصٍ بدا وكأنه نائم، وحين دلفتُ إلى الداخل وقرَّب (فورد) الشمعة منه أدركت أنها جثةٌ؛ وعلمت أن مصدرَ الرائحةِ الكريهةِ التي شَممتُها منذُ دُخولي لتلك الشقة لم يكن منبعثاً من القاذورات فحسب، وإنما يعودُ إلى تلكَ الجثةِ المممددةِ الباردة، التي على الرغم من إنها لم تكن قد تحللت إلا أن رائحة عجيبة خفيفة كانت تنبعث منها، فكأنها كانت رائحة محلول كيميائي .. وبدا من شعرها أنها لسيدةٍ، ولقدْ بدا (فوردْ)

عاشقًا لها، إذْ تغيرتْ سِحنَتهُ بغتةً، فبعدما كانَ يبتسمُ ببرودٍ، باتَ أقربَ إلى طفلٍ يكادُ يبكي.. لقدْ أمعن النظرِ في وجهِ تلكَ المرأةِ، ثمَ داعبَ شعرَها الأشقرْ الطويل، وأخذَ يمسَحُ بيديهِ على رأسها، ورُغمَ أنها أمامَه جثةً لا تتحركُ.. إلا أنهُ لمْ يُردْ أنْ يصدقَ أنها قدْ رحلتْ، وأنها قد تركتْ لهُ مجردَ جثةٍ هامدة استحالَ لونُها إلى الأبيضِ الشاحبِ، ليضُمها إليهِ.

وبَعدمَا انتهى (فوردْ) من تقبيلِ جثة زوجته على جبينها واحتضانها؛ وثب واقفًا على الأرضِ، وعدَّلَ ملابسَهُ، ثمَ التفت إليّ وقالَ بصوتٍ مخيفٍ مختلجٍ مختلط بابتسامة ماكرة ارتسمت على شفتيه: «كنتُ أعلمُ أنكَ تتبعُني.. قل لي؛ أتسعدُكْ رؤيتها وهيَ على هذهِ الحالةِ؟!»، ثمَ استدارَ وأمسكَ زجاجةَ خمرٍ كانتْ على مكتبهِ، وتجرَّعَ منها جرعةً، وأعادَها إلى مكانِها، وأذِنَ لي بالدخولِ.

لقدْ تعثرتُ أثناءَ سيري فسقطتُ أرضاً بسببِ قلةِ الإضاءَةِ، ولمْ أدرِ أكانَ يخشى من أنَ تتحولَ جثةُ محبوبتهِ إلى رمادٍ بفعلِ الشمسِ والضَوءِ؟ لا أدري.. لقدْ سَمحَ لي بأنْ أجلسَ أمامهُ على كرسي،

وأنْ ينظُرَ إليَّ ويخاطِبَني وجهًا لوجهٍ، لقدْ قدحتْ عيناهُ شررًا، ولكنهُ لمْ يكنْ متزنًا نفسيًا، فلمْ يكنْ الحقدُ صفة فيهِ ولا المكرُ من شيمهِ.. لقدْ صار مُخرَّبًا، مُدمَّرًا .. ثمَ سألني بجديةٍ دونَ أي مقدماتٍ: «هلْ رأيتَ تلكَ المرأةِ التي كانتْ جالسة في العربةِ؟ كانَ جمالُها فاتنًا، أليسَ كذلكَ؟» فسألتهُ: «العجوزُ؟!» فعادَ يشربُ من الزجاجةِ ثانيةً، ثمَ قالَ ضاحكًا بسخريةٍ: «كنتُ أعلمُ أنَ صورَتها التي أراها ليستْ إلا من وحيِ خيالي..» وعمَ صمتٌ مطبقٌ، ثمَ قالَ: "إنها ميتةٌ منذُ شهرٍ.. منذُ شهرٍ وهيَ على هذهِ الحالةِ، ولا أحدَ يعلمُ بهذا، إنَّ رائحةَ الغرفةِ بشعةٌ تسبب الغثيان، ولكن.. ليكنْ، إنَّني لا أستطيعُ أنْ أفرط فيها وأسلمها للترابِ» فلم أجبهُ بشيءٍ، وشعرتُ بأنهُ تغيرَ كثيرًا، يبدو أنه كانَ سعيدًا إلى حدٍ ما، إلى أن ألمَّتْ بهِ تلكَ الضربةُ الصاعقةُ، لمْ أكنْ أدري كيفَ كان بإمكاني أنْ أساعدَهُ حينذاكَ، هذا إنْ كانَ سيأذَنُ لي أصلاً، فقالَ ليقطعَ الصمتَ الذي دامَ لبضعِ دقائقَ: «إنني أعاني من ألمٍ رهيبٍ وأرقٍ لا يزولُ لفراقِها، وأشعرُ بالحنينِ إليها يزدادُ يومًا بعدَ يوم، فأرفعُ عنها الغطاءَ، ثمَ أداعِبُ شعرَها الناعمَ، ومن ثمَّ أُجهشُ

بالبكاءِ، فأشربُ كأسًا من الخمرِ لعلها تُنسيني .. أو حتى تواسيني!.. هذا هوَ كلُ ما أفعَلُهُ.. ولا أعيشُ لشيءِ غيرِهُ .. إن الموتَ لا يبدو مرعبًا بالنسبةِ لي، بقدرِ ما يرعبُني شعورُ التعفن، إنَ روحي تتآكل، وإنيِّ لأشعرُ بأنَ قلبي باتَ كحطامِ سفينةٍ، أجلْ.. هذا هوَ كلُ ما يمكنني قوله لوصف ما أشعر بهِ.. لقدْ عذبني رحيلُ صديقي، ورحيلُ زوجتي!.. إلى متىْ سنظلُ نتألمُ في هذهِ الحياةِ؟!» كذلكَ قالَ بصوتٍ ظهرَ فيهِ السأمُ بعد أن تنهد وهو يتلفظ بجملته الأخيرة، ووثبَ عنْ كرسيهِ، وأخذ ينظرُ إلى النافذةِ المغلقةِ وقد اغرورقت عيناهُ بالدموعِ، وظلَ يشدُّ لحيتهُ القصيرةَ، فرأيتُ أنهُ من الأنسبِ أنْ أتركهُ بمفردهِ.

وأسفاهُ! إنني لا أروي قصةً عنْ رجلٍ عاديٍ فقدَ زوجتهُ!، بلْ عنْ تائهٍ تعشش القلقُ والخوفُ والشكُ في رأسهِ.. ومهما حاولتُ أنْ أصفَهُ؛ لنْ أنجحَ في توضيحِ الصورةِ كاملةً لك – عزيزي القارئ – ولذلكَ، فإنني أرى أنَّهُ من الأنسبِ أنْ يُفصحَ هوَ عمَّا بداخلهِ.

إنَ هذهِ المذكراتِ تتناولُ الجانبَ المريبَ من حياةِ البطلِ اليائسةِ البائسةِ، إذْ بعدما رحلَ الراوي، الذي قصَ عليكمْ تلكَ الأحداثِ من أولها إلى آخرها، وهبطَ الليلُ على صديقنا؛ اضطربَ عقلهُ، وتشوَّشَ فكرُهُ، وشعرَ ببؤسٍ شديدٍ.. ففكرَ في مشاعرهِ، وفي الأسبابِ التي كانتْ تدعوهُ للاستمرارِ في الحياةِ، ولأنهُ أطالَ التفكيرَ؛ غفا أثناءَ جلوسهِ على كرسيهِ، وتكررتْ تلكَ الحالةِ في الليالي الأربعِ، فكانَ يرى فيما يرى النائمُ كل ليلةٍ أنهُ أمامَ عددٍ غفيرٍ من الناسِ يخطبُ، ويروي لهمْ ما يجولُ في خاطرهِ، وما يشغلُ بالَهُ، وما دوَّنهُ في ملاحظاتهِ.

الليلةُ الأولَى

سيداتي سادتي، أيها الحضورُ العزيزُ! أيها المجتمعُ، أتتساءلونْ عما أريدُ قوله لكُم وللعالمِ أجمَع؟ هلْ ينتابكم الفضولُ عَمَّا في داخلي؟ عمَّا يجري في عقلي؟ وعمَّا يدورُ في قلبي؟ عنْ الاضطراباتِ التي تُعكِّرُ صفاءَ ذهني؟ وتتسببُ في اضطرابِ مزاجي؟ آنَ لكمْ الآنَ أنْ تعرفوا.

سيدي الكريم، دعني أسألُكَ سؤالاً بسيطًا جدًا.. هلْ توافقُ؟! أتعرفُ يا سيدي الكريمَ، كيفَ هو شعور البرد الذي يصيبُ القلبَ، والفراغُ الذي يعتري الفؤادَ؟ أتعرفُ معاناة فَقْدِ من كانَ يسكنُ سويداءَ قلبِكَ، ويملأُ عليك حياتكَ؟ وأنْ تفقدَ الناسَ جميعًا وأنْ تغدو نفسُكَ غريبةً عنكَ؟ .. أنْ تصبحَ مضطرباً قلقًا، لأنكَ لا تجدُ ملجأً تأوي إليهِ، ولا يوجدُ من ترتمي في حُضنِه وذراعيه ليزيلَ عنك خوفَك وقلقَك.. أنْ يسيطرُ عليكَ فقدانُ الشغفِ تجاهَ الحياةِ بأسرها، وأنْ تموتَ وأنتَ على قيدِ الحياةِ.. إنَ جملتي الأخيرةَ تلكَ

هيَ التي تعذبُ فؤادي ولربما أذهبت النومَ من عيني لأيامٍ، ماذا عنْ شعورِ أنْ تبقى جسدًا بلا روحٍ، وأملاً، بلا شخصٍ؟.. هلْ تريدُ شرحًا لتلكَ الجملةِ الأخيرةِ؟؟

لا تحسبنَ نفسكَ بلا أملٍ، والدليلُ على ذلكَ أنكَ حينَ تضطرُّ لدعمِ أحدهمْ تجدُ نفسكَ تتلفظُ بعباراتٍ إيجابيةٍ من حيثُ لا تدري.. ألا تعرف السببَ؟

في الحقيقةِ لقدْ وجهتَ طاقتِكَ إلى شخصٍ معينٍ، وسببُ شعورِكَ بفقدان الطاقة هوَ أنكَ لا تعرفُ الطريقَ الذي تسلكَهُ لتُهدي نفسَكَ تلكَ الهديةِ الرائعةِ!.. ألا وهيَ الأملُ، ولكن تلكَ حكايةٌ أخرى يطول شرحها، فلنْ نتحدثَ عنها الآن.

صديقي العزيز، سيقولُ الجميعُ أنني لستُ وحيدًا، لأنني أرى العديدَ من الناسِ، بغضِ النظرِ عنْ إذا كانتْ وجوههم عابسةً أمْ لا.. ولكنني لا أجدُ واحدًا منهمْ يُحي الحبَ الذي ماتَ في قلبي، إنَ الوحدةَ يا عزيزي، لا تعني ألا تختلطَ بالبشرِ، ولا أنْ تشعرَ بالاختلافِ، إنها أعمقُ بكثير، هيَ في الداخلِ، في القلبِ يا صديقي.. إنها تُبقي الفؤادَ فارغًا، تلكَ هيَ الوحدةُ الحقيقيةُ، ولا يهم

إذا كانَ الإنسانُ منعزلاً بسببها أمْ لا، فأكثرهم لا يحتملونَ عذابَ شعورِها، ولهذا فهم يتجهونَ للعزلةِ كبتًا لمشاعرِهم التعيسةِ، أوْ ينفجرونَ في وجوهِ الآخرينَ صارخينَ بكلِ شيءٍ.. ولكنْ سيحتجُّ البعضُ بجملةِ أرسطو، التي تسببتْ في مشكلةٍ فكريةٍ لي، وغالبًا أرى أنَ علمَ الاجتماعِ قائمٌ عليها، حين قالَ: «**الإنسانُ حيوان اجتماعيٍ، وكلُ من كانَ على غيرِ ذلكَ فهوَ إمَّا رجلٌ سافلٌ، أوْ كائنٌ أسمى من البشرِ**» .. ولكنني أرى أنَ من السطحيةِ أنْ نحصرَ الإنسانَ ضمنَ اصطلاحٍ معينٍ، وهوَ " الاجتماعيةُ "، رغمَ أنَ أرسطو كانَ صادقًا بعضَ الشيءِ، وبغضِ النظرِ عنْ مقولتهِ، فلقدْ كانَ مقصِدُهُ هوَ أنْ يقولَ: إنَ طبيعةَ الإنسانِ هيَ الاجتماعية، التي قدْ يظنُها البعضُ نقيضًا تامًا للوحدةِ.. فهل الإنسانُ الوحيدُ سافلٌ دنيءٌ من الأراذلِ؟! لا، ليسَ كذلكَ، فالإنسانُ – وإنْ كانَ وحيدًا يا سادتي – وإنْ سلكَ طريق العزلةِ السلبيةِ عنْ البشرِ بنفسهِ، فهذا لا ينفي أنهُ نفسهُ أكثر الناسِ رغبةً في الحبِ والتقديرِ.

إنَ الوحيدَ يا سادة، أوْ المتوحدِ، سموهُ بما شاءَ بهِ هواكم، رغمَ كونهِ منعزلاً، يتمنى لوْ أنَ أحدًا أرسلَ إليهِ رسالةً، أوْ جاءَ لزيارتهِ، على الرغمِ من أنهُ قدْ لا يرحِبُ بهذا التصرفِ أحيانًا، وقدْ يُلقي بالرسالةِ في سلةِ المهملاتِ دونَ أنْ يفتحَها، أوْ ينظرَ إلى اسمِ مرسلها.. فلماذا إذًا يترقبُ مجيءَ الزوارِ ويرى الناسَ من خلفِ النافذةِ عسى أنْ يأتيهُ زائرٌ ما؟

الإجابةُ هيَ: لأنهُ يبحثُ عن الحبِ والاهتمامِ، ولا يرغبُ في أنْ يكونَ منسيًا ولوْ عدَّ نفسَهُ منبوذًا من نفسِهِ حتى من قَبلِ البشرِ، وتلكَ نقطةٌ لمْ يذكرها أرسطو، ولكني توصلتُ إليها حينَ أمعنتُ التفكيرَ في مقولتِهِ، وحكَّمتُ عقلي.. فما الذي توصلنا إليهِ من هذا كلهِ؟ أقولُ لكمْ يا سادتي:

إنَ الخلاصةَ في الآتي: " الإنسانُ الوحيدُ ظاهريًا اجتماعيٌ داخليًا " أي يتمنى لوْ يحادثُ الناسَ وإنْ كانَ لا يقوى على المبادرةِ بذلكَ، أوْ يعاني من مشكلةٍ في المهاراتِ الاجتماعيةِ.. وكانَ ذلكَ نقاشًا في علمِ الاجتماعِ، الذي أخرجَ للإنسانِ طبيعةً اجتماعيةً، فماذا عنْ علمِ النفسِ يا أصدقائي؟

لقدْ كانَ (فيودورْ دوستويفسكي) مقتنعًا بأنَ الإنسانَ يستطيعُ أنْ يبقى وحيدًا، وهذا ما سنتحدث عنه بعد قليلٍ، حيثُ قالَ: «**إنَ مشكلةَ الإنسانِ حينَ ينضجُ عقلهُ تكمنُ في تفضيلهِ للانعزالِ والوحدةِ**»، وذكرَ بلسانِ بطلٍ في إحدى رواياتهِ أنهُ ظلَّ منعزلاً تمامًا عنْ البشرِ لثلاثِ سنواتٍ، وقالَ صراحةً أنهُ نفسهُ بقيَ وحيدًا لخمسِ سنواتٍ، فهلْ يستطيعُ الإنسانُ أنْ يعيشَ على هذهِ الحالةِ؟ وهلْ البشرُ بلا فائدةٍ فعلاً؟ أخرجَ (دوستويفسكي) لعلمِ النفسِ قاعدةً جديدةً، حينَ كانَ يصفُ نفسَهُ في مقولتهِ الشهيرةِ: «**أنا أحبُ الوحدةَ، تعودتُ عليها، والتعودُ هوَ الطبيعةُ الثانيةُ للإنسانِ**».. فهلْ يستطيعُ الإنسانُ أنْ يحيا وحيدًا فجأة؟!.. لا، لا يستطيعُ ذلكَ، ولكنْ يمكنهُ حين يتعوَّدُ، وعندما يتكيَّفُ على الوضعِ سينسى ما تُسببهُ الوحدةُ لهُ من آلامٍ، ولنْ يتأذى إلا حينَ يختلطُ بالبشرِ فيجددونَ شعورهُ بجحيمِ الوحدةِ، وعدا ذلكَ فستنتقلُ مشاعرها السلبيةُ – أيْ الوحدةِ – إلى العقلِ اللاواعي، حيثُ يقبعُ فيهِ " اللاشعورُ "، وذلكَ يحدثُ بسببِ كبتِ الإنسانِ لمشاعرهِ السلبيةِ، ومن ضمنها المشاعرُ الناتجةُ عنْ الوحدةِ، فيظنُ أنهُ تخلصَ من

المشكلةِ، وأن باستطاعتهِ التعايشَ معها، وسينسى أصلَهُ الاجتماعيُ مؤقتًا، وسينفرُ من البشرِ، ولنْ يشتهيَ محادثتهمْ، إلى أنْ تتأججَ نارُ اللاشعورِ داخلَهُ، فتطفح المشاكلُ النفسيةُ دفعةً واحدةً بسببِ قمعِ المرءِ لمشاعرهِ ورغباتهِ وأفكارهِ، مما قدْ يصيبهُ بالاكتئابِ.. ولكنهُ لنْ يعرفَ أنَ سببَ ذلكَ قدْ يكونُ من الوحدةِ أساسًا، فهلْ تتسببُ الوحدةُ في الاكتئابِ؟

أجل، ولكنكَ ستسألني الآن يا صديقي: كيفَ سيعيشُ الإنسانُ معَ الاكتئابِ الناتجِ عنْ الوحدةِ؟ وهلْ يستطيعُ فعلَ ذلكَ؟ أنا أجيبُكَ: إنَّ بإمكان المرءِ العيش معَ الاكتئابِ لمدةٍ مؤقتةٍ، ولكنَ ذلكَ لنْ يستمرَ لوْ أنهُ فكرَ بالانتحارِ، وسيعيشُ "مجازيًا " لأنَ الاكتئابَ يقتلُ كلَ شيءٍ في داخلنا، فستعود لتسألني: كيفَ قلتَ إنَ بإمكانِ الإنسانِ أنْ يحيا لوْ أنهُ تعوَّدَ الوحدة؟! فأقولُ لكَ: بتحويلها إلى وحدةٍ إيجابيةٍ إن كانَ يجدُ راحَتهُ في الانعزالِ لفترة طويلة عنْ البشرِ، ولنْ أتحدثَ عنْ الوحدةِ الإيجابيةِ إلا بعدما أُبدي رأيي في

فكرةٍ طَرَحَها فيلسوفٌ مجهولٌ[1]، وتحديدًا حينَ عبَّرَ عنها قائلاً: **«جرِّبْ أنْ تظلَّ وحيدًا لفترةٍ، ستجدُ أنَ البشرَ بلا أيِ فائدةٍ حقيقيةٍ، سوى إنهاكَ في تفاهاتٍ سطحيةٍ لمشاكلِهِمْ النفسيةِ طوالَ الوقتِ»** .. أنا لا أشارك الفيلسوف صاحبَ هذهِ العبارةِ تلكَ الفكرةِ؛ لأنَ المرءَ كما أعربتُ من قبل يفتقرُ إلى الحبِ والتعاطفِ، كما يحتاجُ أنْ يشاركهُما أيضًا ليصبحَ سعيدًا، ولتتوازنَ الحياة.. ولنعُدْ إلى سؤال لعله يدور في أذهانكم: ما معنى كلمة "ظاهرياً" التي استعملتها من قبل؟ وهلْ الوحدةُ حقيقيةٌ؟

يؤسفني يا سادة، أنَّ إجابتي قدْ تهدمُ كلَ ما شرحتُهُ سابقًا، فأنا لا أؤمنُ بالوحدةِ إلا كمعنىً "مجازيّ"، وكمبررٍ لتلكَ المشاعرِ التي نشعرُ بها – وقدْ يكونُ لا معنىً لها – عندما نختلطُ بالبشرِ، والذي جذبني لتلكَ الفكرةِ إلى أنَ تبنيتُها، هوَ مقولةُ (فيودورْ دوستويفسكي) في روايةِ الجريمةِ والعقابِ: **«لكنَ (راسكولنيكوف) رغمَ بقائهِ وحيدًا في جميعِ الأحيانِ تقريبًا، لم يفلح في الوصولِ**

[1] تنسب المقولة لدوستويفسكي، ولكنها ليست له

إلى الشعورِ بالوحدةِ».. لقدْ شعرتُ أنهُ ليس بإمكانِ أيِ أحدٍ منا أنْ يشعرَ بالوحدةِ الحقيقيةِ، فالوحيدُ يفكرُ في كلِ التفاصيلِ بشكلٍ عميقٍ، ويعيشُ في عالمٍ مظلمٍ بعيدٍ، وتحيا بداخلِهِ العديدُ من الأفكارِ والشخصياتِ الوهميةِ، وقدْ يحيا عالمٌ بأكملهِ داخلَ عقلهِ.. فكيفَ يكونُ وحيدًا عندئذٍ إنْ كانَ يحادثُ العديدَ من الناسِ في مخيلتهِ، ويتبادلُ معهمْ الأفكارَ رغمَ أنهُ يسمعُ صوتَهُ الداخليّ لا أكثر؟!..

أما الوحدةُ، أهيَ حقيقيةٌ أمْ لا؟ ذلكَ سؤالٌ لا أستطيعُ الإجابةَ عنهُ يا أصدقائي، ولا حتى شرح فكرتي بشكلٍ سليمٍ، ففي عقلي المئاتُ من الأفكارِ تكفي لكتابةِ العديدِ من المقالاتِ والمواضيعِ، وحين أكتبها أجدها مجردَ قشور كلامٍ تافهةٍ وساذجةٍ.

ماذا عنْ العزلةِ؟ أهيَ حقيقيةٍ أمْ لا؟ ما هوَ الفرقُ بينَ الوحدةِ والعزلةِ أساسًا؟ سبقَ أنَ شرحتُ ذلك بشكلٍ مختصرٍ، إذاً فلنتعمق الآن..

أظنُ يا أصدقائي الأعزاءَ، أنَ الجميعَ يعتقدونَ أنَ الوحدةَ الإيجابيةَ تساوي العزلةَ، لأنَ العزلةَ استجابةٌ إيجابيةٌ للمشاعرِ بينما تُعدُّ

الوحدةُ النقيض، ولكني سأخرجُ بقانونٍ جديدٍ، سأجعلُ الوحدةَ إيجابيةَ فيهِ، ومحتفظةً بمصطلحِها..

أما الفرقُ بينَ العزلةِ والوحدةِ السلبية.. ففعليًا، يتجهَ الإنسانُ إلى العزلةِ لجمعِ طاقتهِ، وتصفيةِ ذهنهِ، بإرادتهِ الكاملةِ.. كما أن العزلةَ تكونُ مؤقتةً، ويشعرُ الفردُ فيها بالإيجابيةِ.. بينما تكونُ الوحدةُ شيئًا يُجبَرُ عليهِ المرءُ، أوْ اختيارًا اتخذهُ كحيلةٍ دفاعيةٍ يهربُ عنْ طريقِها لمدة طويلة من سخرياتِ الآخرين، ويمكن أنْ تحدثَ بسببِ فقدانِ ثقتهِ بنفسهِ، وتأثيرِ المواقفِ الاجتماعيةِ عليهِ بشكلٍ سلبيٍ.

كيفَ نجعلُ الوحدةَ إيجابيةً؟ ذلكَ سؤالٌ مهمٌ، وينبغي تسليطُ الضوءِ عليهِ، حيثُ يظنُ الناسُ أنَ الوحدةَ سلبيةٌ دائمًا، فينفرونَ منها.. ولكنْ كيْ أجيبَ عن سؤالكَ يا عزيزي، فأنا بحاجةٍ إلى قول أننا لنْ نصلَ لإجابةِ عليهُ إلا لوْ علمنا أسبابَها، ولماذا يتجهُ الإنسانُ لها؟

في الحقيقةِ يا سيدي، هناكَ العديدُ من الأغراضِ التي تجعلُ الإنسانَ يتجهُ إلى الوحدةِ، ولهذا فلنقمْ بتقسيمها: الوحدةُ " اللاإراديةُ

": والتي يكونُ الإنسانُ فيها وحيدًا لعدمِ وجودِ صداقاتٍ أوْ علاقاتٍ اجتماعيةٍ، وتربية الطفلِ على الانعزالِ، أوْ نتيجة لانفصالِ الوالدينِ، أوْ موتِ شخصٍ عزيزٍ، أوْ المعاناةِ من مشكلةٍ اجتماعيةٍ؛ كسوءِ التفاهمِ معَ الآخرينَ، والوحدةِ " الإراديةِ ": التي ينعزلُ فيها الإنسانُ عنْ الآخرينَ لرغبتهِ في الابتعادِ عنْ عبثيةِ وتفاهةِ البشرِ وسطحيتهمْ.

والوحدةُ شيءٌ معقدٌ للغايةِ، فيصعبُ التفريقُ بينَ نوعيها، وقدْ يتمُ الخلطُ بينهما وبينَ الغرورِ، وقدْ يتجهُ الإنسانُ إليها لشعورهِ بالاختلافِ أوْ التميُّز، ويصيرُ وحيداً تجنبًا لاعتداءِ الآخرينَ عليهِ لفظيًا أوْ جسديًا، ولخوفهِ من الاختلاطِ بالناسِ، وبحثه الدائم عنْ هدوءِ بالِه وراحتهِ النفسيةِ، أوْ كيلا يقلقهُ أفرادُ المجتمعِ، وقدْ يتجهُ للوحدةِ أيضا ابتعادًا عنْ أقنعةِ البشرِ المزيفةِ والمتعددةِ.. ولربما يتقمصُ شخصيةً ما لينالَ إعجابَ الآخرينَ.. وقدْ يفعلُ ذلكَ ظنًا منهُ أنهُ سيكونُ "مستقلا ذاتياً" عنْ طريقها، أوْ انتقامًا من نفسهِ لاقتناعهِ بأنهُ نكرةٌ، وقدْ تكونُ الوحدةُ استجابةً للاكتئابِ، كما أنها قدْ تنتجُ عنْ "إدمانِ القراءةِ"، وغيرِها من أنواعِ الإدمانِ.. ولكنْ يا

أصدقائي، لقدْ طالَ الحديثُ، وينبغي أنْ أسرعَ شارحًا كيفية جعلِ الوحدةِ إيجابية.

أتعلم سيدي الكريم؟ أتعلم أنَ الوحدةَ من أفضلِ الفرصِ لاستكشافِ الذاتِ والإبداعِ وبلوغِ الأهدافِ؟ وذلكَ لأنكَ حينَ تعززُ ثقتكَ بنفسِكَ، تمنحُ نفسَكَ فرصةً لتبدعَ وتتميزَ في المجالاتِ التي تنجذبُ لها، بعيدًا عنْ التفكيرِ فيما سيقولهُ الآخرونَ.. كما أنهُ من الأجدرِ بكمْ يا سادة أنْ تُصَفُّوا أذهانَكمْ، وأنْ تواجهوا القلقَ إنْ كانَ يُعيقُكمْ، وبعدها قوموا بترتيبِ أفكاركِمْ.. وهذا سيساعدُكمْ على البدءِ بالتفكيرِ المنطقيِ وإعادةِ التوازنِ للحياةِ التي بداخلكمْ، كما أنهُ بإمكانِكمْ يا أصدقائي، أنْ تغيروا اتجاهَكمْ الذهني تجاهَ المجتمعِ – وذلكَ ضروريٌ لتطوِّروا أنفسَكمْ –؛ لتكونوا قادرينَ على التفاعلِ والتعاطفِ معهمْ، كما أنَ الوحدةَ – يا سادتي – ستكونُ رائعةً إن شغلنا أوقاتِنا فيها بالهواياتِ المختلفةِ.. ولكنَ ذلكَ لا يغني عَن الاختلاطِ بالآخرينَ ولوْ ليومٍ واحدٍ في الأسبوعِ، كيْ تعبروا عنْ مشاعرِكمْ وأفكاركمْ، تجنبًا للضغطِ النفسيِ وحدوثِ الكبتِ. ولدىَّ سؤال لكمْ يا أصدقائي: هلْ تكونُ الوحدةُ سيئةً الآن؟.

كما أنني أريدُ قولَ شيءٍ آخرَ، من دونِ أنْ يسألنيَ أحدٌ عنهُ؛ لأنَ الأمرَ يقتضي ذلكَ. سيدي المحترم المبجل، لماذا يختلفُ الناسُ بخصوصِ الوحدةِ وينفرونَ منها؟ إنَ هذا لسؤالٌ ضروريٍ.

شخصيًا أرى أنَ مبررَ ذلكَ لا يكمنُ في معنى الوحدةِ نفسها، ولا في نظرةِ المجتمعِ المتعاليةِ للوحيدِ، بلْ إنَ المشكلةَ الأساسيةَ تكمنُ في ظنِّ البعضِ بأنَ الوحيدَ ضد البشريةِ، أوْ كاره لها، وهناكَ تفريعاتٌ كثيرةٌ في تلكَ النقطةِ الوحيدةِ، حيثُ يتمُ الخلطُ بينَ "رهابِ كراهيةِ الأجانبِ"، وبينَ "اضطرابِ القلقِ الاجتماعيِ" وبينَ "العنصريةِ" و "النرجسيةِ".. ولربما يخلطُ الناسُ بينهمْ جميعًا وبينَ الشخصِ المتصفِ بالوحدةِ، فلهذا إنما أرى أنهُ من الواجبِ عليَّ أنْ أستعينَ بذاكرتي، وأنْ أستشهدَ بجزءٍ مقتبسٍ من مذكراتي[٢]؛

---

[٢] **رهاب الأجانب:**

يشعر المصاب به بعدم الثقة بالأجانب لدرجة الكره، مما يجعله يظهر عدوانياً، وذلك بسبب: اختلاف الدين، والجنسية، والمعتقدات؛ فينطوي المريض على نفسه.

الرهاب الاجتماعي:

من الاضطرابات النفسية الناتجة عن فقدان الثقة بالنفس والخوف من الآخرين، وتظهر على الفرد أعراض الخوف والتوتر حين يتحدث مع الناس، ويكون ذلك بشكل زائد ومبالغ فيه،

لأجلِ مساعدتكمْ على التمييزِ بينهمْ، وفي النهايةِ.. أنا أرجو يا أيها السادة، أنْ أكونَ قدْ وضَّحتُ بشكلٍ صحيحٍ فكرتي التي تعذبُ

ويشعر صاحبه بأن الكل يحدق به ويلاحظ أدق تفاصيله، كأسلوبه في تناول الطعام، أو حركاته البسيطة، ويخشى المصاب به من التلعثم، وهناك أعراض أخرى؛ كالارتجاف والتعرق وضيق التنفس وخفقان القلب وتشتت الذهن وصمت المرء لوقت طويل، ومن مضاعفاته: نوبات الفزع والهلع والانهيار العصبي.

العنصرية:

هي الإيمان بوجود فروق تحط من قدر المرء، كديانة الشخص أو عرقه (وتختلف في تلك النقطة عن رهاب الأجانب، حيث إن المصاب برهاب الأجانب يخشى اختلاف الأديان تجنباً للاشتباكات والنقاشات الحادة، أو لرغبته عن تغيير معتقداته الدينية)، وإشعار المختلفين بأن الإنسان العنصري متفوق عنهم فكرياً (ثقافياً) وأخلاقياً أو دراسياً وسياسياً، فيميّز بينهم .. ومن الأفكار العنصرية؛ الاعتقاد بدونية الأعراق أو الجماعات الأخرى (ومن أهم الفروق بين العنصرية ورهاب الأجانب أن العنصري يكره الإنسان لعرقه، بينما قد ينفر المصاب برهاب الأجانب من شخص لأنه ينتمي إلى بلد معينة – وذلك يحدث بشكل لا إرادي، حيث إن الإنسان الذي يعاني من رهاب الأجانب قد يدعو للسلام والعدل والأخوة، رغم أنه لا يستطيع تقبل الاختلاف أحياناً –)

ومن أنواع العنصرية: الفروق الجسمانية والعمرية.

النرجسية:

هي اضطراب في الشخصية ومشكلة اجتماعية وثقافية ونفسية، حيث تعني الأنانية، ويتميز صاحبها بالغرور والتبختر والتعالي مع الاعتزاز بالنفس، وتتوافق مع مفهوم التخاذل، أو خيانة الآخرين وإلحاق الأذى بهم، لأجل مصلحة شخصية، وهي كلمة يونانية نسبت إلى نركسوس، وتتسبب في المشكلات الاجتماعية، وتختلف عن حب الذات أو الثقة بالنفس.

ضميري.. وأنا أعلمُ أنَ الوحدةَ يصعبُ فهمها وتحليلها، و «**يجبَ ألا ننسى أنَ دوافعَ أعمالِ الإنسانِ هيَ في العادةِ أشدُ تعقيدًا وأكثر تنوعًا مما نتصورُ حين نريدُ تعليلها**[٣]».. ولقدْ حاولتُ الاقتصارَ على المعلوماتِ المهمةِ قدرَ الإمكانِ.

وختاما، أيها الأعزاءُ، فقد قمتُ بتوضيحِ شعورِ الوحدةِ نيابةً عنْ أصدقائي الذينَ يخطئونَ شرحَ مشاعرهمْ، لاختلاطِها عليهمْ، وللفوضى العارمةِ التي في أذهانهِمْ.. حيثُ إنهمْ أحيانًا يرغبونَ في التعبيرِ عنْ حاجتهمْ للحبِ، فيظنُ الناسُ أنهمْ يشتكونَ من وحدتِهمْ، مما يعرضهمْ لسوءِ الفهمِ، لأنهمْ أحيانًا من يجتنبونَ الالتقاءَ بالبشرِ..

وشكرًا لطولِ صبركِمْ.

[٣]اقتباس من رواية الأبله لفيودور دوستويفسكي

الليلةُ الثانيةُ

آهٍ، إنني أشعرُ اليوم بصداعٍ شديدٍ يا أصدقائي، إنَّ الهلوساتِ تتكاثرُ في رأسي، والقلقَ يعشّشُ في عقلي.. إنني إنسانٌ مريضٌ، وأنا أعرفُ ذلكَ جيدًا، لقدْ نسيتُ أنْ أقولَ لكمْ: لقد اشتغلتُ بالتدريسِ لمدة سبعِ سنواتٍ من حياتي، فأنا لا زلتُ في التاسعةِ والعشرينَ من عمري، وتخرجتُ في الجامعةِ وأنا في الثانيةِ والعشرينَ.. لقدْ عُيِّنتُ في مدرسةٍ حقيرةٍ، فقيرةٍ، بالأريافِ، فكانَ الذهابُ إليها مُرهقًا مُتعبًا، وبسببِ السفرِ لمْ أكنْ أرى زوجتي إلا في الإجازةِ الأسبوعيةِ أوْ في الإجازاتِ السنويةِ، ولقدْ عِشتُ على هذهِ الحالةِ البائسةِ طوالَ السبعةِ أعوامٍ، فما كانَ أشدَ حزني حينَ كنتُ أنظرُ للطلابِ البؤساءِ..

ولحسنِ حظيَ أنيِّ صِرتُ عاطلاً، وأني استقلتُ من العملِ قبل أن أصلَ لسنِ المعاشِ.. قدْ يكونُ كلامي غريبًا، خاصة عندما تعلمون أني إنسانٌ معدمٌ، لا يملكُ إلا شقتَهُ المظلمةُ المعتمةُ

المتسخةُ تلكَ، أجل، لا شكَ أنني أبدو سخيفًا، فكيفَ أكون فقيرًا معدمًا وآتي لأخطب في حضوركمْ؟

أيها الأصدقاءُ الأعزاءُ، أيها المجتمعُ الراقي.. آه، لقدْ دَهَسَتني وهمَّشَتني الطبقةُ الأرستقراطيةِ، ولكنْ لابد أن ما أقولهُ الآنَ هوَ مجرد هذيانٍ.. عنْ أيِ شقةٍ أتكلمُ؟ لا يا أصدقائي، لا تسيئوا الفهم .. أنا من اختلطتْ علي الأمورُ.. فكأن ما رويتهُ قدْ رأيتهُ في حلمٍ مزعجٍ كريهٍ..

ماذا كنتُ أقولُ؟، أجلْ! العمل كمعلمٍ، لقدْ استهزأَ بي الأطفالُ لسببٍ لستُ أعرفهُ، لعلَهُ منظري المضحكِ هذا، رغمَ أني أبدو شابًا خفيفًا لطيفًا، مؤكدٌ أنكمْ تتساءلونَ عنْ السببِ الذي جعلني عاطلاً؟ .. في الحقيقةِ، لقدْ شعرتُ أنَ المالَ جعلني عبدًا لهُ، ولأوضحَ فكرتي هذهِ بشكلٍ سليمٍ وواضحٍ أكثرَ.. إنني أتكلمُ عنْ الحريةِ يا سادة.. صحيح أنَّ زوجتي قدْ توفيتْ منذُ شهرٍ، ولكني رغم ذلكَ لستُ حزينًا، معَ أني لستُ متأكدًا من هذا تمامًا بعد .. لقدْ كانَ تأثيرُ زوجتي عليَّ كتأثيرِ المالِ!، كنتُ أخضعُ لهما سواءً بسواءٍ، لدرجة أني بِعتُ شرفي لأجلهما، لقدْ تسولتُ وطلبتُ

الصدقةَ من الناسِ، وأحيانًا كنتُ أطرقُ بابَ جيراني الرحماءِ لأسألهم إنْ كانَ قدْ فاضَ عندهمْ طعامُ، إنَّ المالَ يا أصدقاء، صورةٌ من صورِ العبوديةِ، فإذا تخلصَ المرءُ من سيطرتهِ باتَ إنسانًا، أوْ هكذا أظنُ.

ولكنَ صورَ الحريةِ عديدةٌ.. فكيفَ عساي أن ألخِصَها لكمْ؟! إنني مضطربٌ، متوترٌ، ومشوشُ الفكرُ، ولكنْ لا يسعني إلا أنْ أقولَ لكمْ هذا؛ لعلمي بأنه سيسعدكم، وهو أنكم تتمنون لو أقول أني تجردتُ حتى من الدِينِ.. وأني أرى الدينَ وكأنه صورةٌ من صورِ العبوديةِ، صحيح أننا نعبدُ الربَ، وأن عبادته تختلف عن العبودية للبشر، ولكني لا أريدُ أنْ أعبدهُ بعدَ الآنَ، ماذا فعلَ لي؟ لقدْ سلبَ روحَ زوجتي، وتركها لي جثةً هامدةً، لقدْ عذبني، ولستُ أبالي إنْ رماني في جحيمهِ، ولستُ أبالي إنَ كنتمْ ستلقونَ علي باللومِ.. لسوفَ تغفرونَ لي جميعكمْ؛ لأنكمْ لا شيءَ بدونيٍ.. لأني أنا من لهُ فضلٌ عليكمْ، ولأني من أنقلُ لكمْ شيئًا من علميٍ ومن ثقافتي، بينما كانَ بإمكاني أنْ أسكتَ، أنا لستُ متغطرسًا، ولكني لمْ أقضِ نصفَ عمري في الدراسةِ والتعليمِ، لأعامَل بوقاحةٍ من قِبل طفلٍ

صغيرٍ أشبهُ بحذاءٍ قديمٍ، أوْ ليصحح لي كلمةً كتبتُها بشكلٍ خاطئ على السبورةِ بسببِ تعجلي ومرضِ أعصابي، ولعلي إن لمْ أكنْ موجودًا لمْ يدخلْ هوَ إلى المدرسةِ، فقدْ كنتُ أتوسطُ لكثيرٍ من الفقراءِ، الذينَ لا يملكونَ قرشًا واحدًا، ليقبَلوا في المدرسةِ بدافعِ الشفقةِ والمحبةِ والإنسانيةِ فقطْ.

هذا ما تريدونَ مني أنْ أقولهُ لكمْ يا سادة؟، قد أكون إنساناً شريراً، ولكنكم أشد خباثةً مني لدرجة أنكم تتمنون زوال الدين، لمعرفتكم بأن أعمالكم منحرفة عنه.. لا، أنا إنسانٌ تقيٌ، شريفٌ، فقيرٌ، يحبُ الأطفالَ، ولمْ يرزقهُ اللهُ بطفلٍ.. أنا إنسانٌ رحيمٌ، ولكني مريضٌ، ولعلَ تلكَ التناقضاتِ هيَ السببُ الرئيس في أنكمْ لا تفهمونَ مني شيئًا الآنَ.. أنا لا أجحدُ وجودَ اللهِ، ولا أقولُ إن عبادةَ اللهِ صورةٌ من صورِ التقيُّدِ والعبوديةِ .. صحيح أني لست متديناً، ولكنَّ عبادةَ الحقِ تعني الحريةُ أيها السادةُ، أما عبادةُ الباطلِ من مالٍ وملهياتٍ ومسكراتٍ، فهيَ العبوديةُ بأفظعِ وأبشعِ صورِها يا سادتي.. وأنا أيضاً لا أُذلكم بنعمةٍ أوْ فضلٍ.. بلْ أنتمْ من لكمْ فضلٌ كبيرٌ عليَّ يا سادة.. ما أنا إلا عبدٌ فقيرٌ لكمْ، عبدٌ

باعَ حريتهُ لأجلكمْ .. لقدْ سلبتُم منَّا أموالَنا، لأجلِ مشاريعكمْ التي لا تنفعُ أحدًا غيركَمْ، لقدْ طلبتمْ منَّا تبرعاتٍ لإنشاءِ المدارسِ والمستشفياتِ، لمعالجةِ وتعليمِ الأطفالِ، ولكنكمْ بنيتمْ بأموالِنا بيوتًا وقصورًا لكمْ، لقدْ قمتمْ بنهبنا، رغمَ أنكمْ لستمْ هنا، ولستمْ إلا خيالاً من عقليِ المريضِ.. هذا ليسَ حلمًا، وليسَ وهمًا.. هذا شريطٌ يدورُ بعقلي كلَ ليلة.. هذا هوَ الجحيمُ بعينهِ.. هذا هوَ ما يجعلني أفكرُ في إطلاقِ النارِ على رأسي، لأنتهيَ من تلكَ الضجةِ التي لا تهدأُ، ومن هذا الألمِ الذي لا يتركني لأنام.. لقدْ سئمتُ منكمْ يا سادة، لقدْ سئمتُ منكمْ.. لقدْ طفحَ الكيلُ.. إنني أريدُ أنْ أقتصَّ منكمْ، لأنكمْ جعلتموني وحيدًا بلا امرأةٍ تحتويني، لأنكمْ جعلتموني أخسر أعزَ إنسانٍ لي.. قدْ كانتْ ملاكاً.. رباهُ! لقدْ كانتْ كذلكَ فعلاً، أنتمْ سببُ مرضي الحقيقيِ وسببُ ما أنا فيهِ من شقاءٍ.. أنتمْ لستمْ أصدقاء لي، أنتمْ أوغادٌ، حقراء، أنذال، أنتمْ غدَّارون، تطعنونَ من أحبوكمْ ووثقوا بكمْ من ظهورهمْ..

آهٍ! ولعلي مخطئٍ، لعلي كذلكَ، فما من إنسانٍ بلا خطيئةٍ، أنا من ذهبتُ بنفسي لاحتساءِ الخمرِ في الحانةِ، وأنا من كنتُ سبباً

فيما أنا عليهِ الآنَ، أنا من سمحَ بهذا القدرِ من الحريةِ، لربما لمْ تكنْ حريةً، لربما كانَ انحرافًا، أجلْ، لقدْ كانَ انحرافًا بيِّنًا، ولكنْ حتى أنا كنتُ معميًا عنهُ، لقدْ سقطتْ الغشاوةُ عنْ عيني الآن.. إنني أعتذرُ لكمْ يا أصدقاء، أنا السببُ، أنا السببُ، اللعنةُ عليّ، ولكنْ ما الحريةُ؟ ما الحريةُ يا سادة؟ إنني أسألكمْ.. فأنا إنسانٌ جاهلٌ، لِتمنُّوا عليَّ بتلكَ النعمةِ أيضًا، فتخبروني بمعناها؛ فلعلي أستطيعُ عندَ ذلكَ أنْ أحددَ هلْ كنتُ أنا الوغد؟ أمْ كانتْ هيَ المخطئة؟ أمْ "هوَ" الخائن؟ لعلَ زوجتي كانتْ مجردَ ضحيةٍ للموتِ.

الموتُ، ماذا يكونُ؟ أهوَ مرضٌ يتفشى بيننا دونَ أنْ نشعرَ؟ أمْ أنهُ ريحٌ سوداءُ؟ أمْ أنهُ مرضٌ يصيبُ القلبَ قبلَ الجسدِ؟ أجلْ، فالروحُ لا تموتُ، وهذا ما يجعلني أُقبِّلُ يدَ زوجتي كلَ يومٍ، لأسألها أنْ تغفرَ ليُ.

ورغمَ ما أنا فيهِ من ضعفٍ، ومن مرضٍ، فأنا لا أزالُ أملكُ رأيًا، وأرى أنَ الحريةَ ضروريةٌ لارتقاءِ المجتمعِ، فهيَ العاملُ الأساسيُ للرقيِ، لأنهُ حينَ يتوقفُ المالُ عنْ استعبادِنا، ونستغنى قليلاً عنْ

الماديةِ في حياتنا، تحيا مشاعرُ الإنسانيةِ والأخوةِ؛ فالأخوةُ فطرةٌ تكمنُ في العفويةِ، وليسَ في التفكيرِ في كيفيةِ تنفيذها، والتقدمُ الحقيقيُ غير مرهونٍ بالعلمِ والمالِ وحدَهُ، وإنما بالسعادةِ والأخلاقِ، وغير ذلكَ، فسوفَ يتقدمُ العالمُ مَجازيًا، ويصيرُ الشعبُ مكتئبًا سكيرًا، ولكيْ تتقدمَ دولتُنا لا بدَ من أنْ نصحِّحَ مفهومَ الفضيلةِ، وأنْ نشرحَ للأجيالِ القادمةِ أنَ الغايةَ لا تبررُ الوسيلة، وأنَ المالَ لا يَصنعُ السعادةَ، وإنما هوَ مجردُ جانب من جوانبها، ووسيلةُ لتحقيقِها، وأنَه طالما أُهملَ الجانبُ النفسيُ والخلقيُ؛ فلنْ تنتشرَ الإخوةُ ولا التعاونُ، ولا الأحلامُ ولا التفاؤلُ بالمستقبلِ.

علينا أنْ نشرحَ لهمْ ذلكَ جيدًا؛ وإلا رأينا مجددًا ما نراهُ في أيامنا هذه يا سادة، فنرى شحاذًا يقفُ بجانبِ أرستقراطي في حانة بسببِ شعورِ كل واحدٍ منهما بالبؤسِ.

وعلينا أنْ نتحررَ من أيِ قيدٍ يمنعُنا عنْ قولِ الحقيقةِ، وأنْ تتكلمَ الصحفُ بلا انحيازِ لأيِ طرفٍ كانَ، وأنْ نتحررَ من عبادةِ المالِ والسادةِ، وأنْ نؤمنَ بأنَ علينا أنْ نطوّرَ وأنْ نغيرَ قليلاً من عاداتنا ومن تصرفاتنا ومن أفكارنا ومن أخلاقنا كيْ نحيا في عالم أفضل

وأجمل، وأنْ نحاربَ الاشتراكيةَ التي زيفتْ الأخوةَ، وربطتْ العطاءَ والمنحَ بالتخلي عنْ الحريةِ والممتلكاتِ الشخصيةِ، وأنْ ندركَ جيدًا أنَ الحياةَ وحدَها نعمةٌ، بغضِ النظرِ عنْ السعادةِ، وأنْ نستوعبَ أنَ العلمَ والثقافةَ لا علاقةَ لهما بالشرفِ، فقدْ يكونُ المرءُ أستاذًا كبيرًا في جامعةٍ محترمةٍ، ولكنهُ ليسَ مثالَ خيرٍ يُقتَدى بهِ، ويمكنُ لطلابه أنْ يستخلصُوا منهُ أيَّ استنتاجٍ أخلاقيٍ.

الليلةُ الثالثةُ

إنني لا أروي حلمًا رأيتهُ في هذهِ الليلةَ، وإنما سأُحدثُكمْ عنْ نفسي أكثرَ.. أيها السادةُ الأعزاءُ، أيها السادةُ المحترمون، لقدْ علمتُ شيئًا جديدًا، وهوَ أنِّي لمْ أعدْ أراكمْ فقطْ في الأحلامِ، أتعرفونَ شيئاً؟ أظنُ أني أعاني من مشكلةٍ في دماغي، تُسببُ لي القليلَ من الهلوسةِ، أوْ شيئًا من هذا القبيل، كورمٍ دماغيٍ مثلاً، أوْ كاضطرابِ الكربِ التالي للصدمةِ النفسيةِ، إنهُ شيءٌ أليمٌ يؤثرُ في التفكيرِ، ورغم ذلكَ فأنا لا أزالُ أتذكرُ شيئًا من الماضي.. من طفولتي.. لقدْ كبرتُ في ظروفٍ قاسيةٍ، إذْ كانَ والدي متوفيًا، ولمْ أرزق بأخوةٍ، ولمْ أكنْ أعرفُ أحدًا عدا أمي التي أنجبتني بعد وفاةِ والدي بثلاثةِ أشهرٍ، وهيَ في الأربعين من عمرها.. لقدْ كانَ ميلادي معجزةً بحدِ ذاتها، فكأني خُلقتُ لهدفٍ عظيمٍ لم أدركهُ.. لقدْ عاملتني والدتي بقسوةٍ وجفاءٍ، ولمْ تكنْ تهتمُ بي كثيراً؛ ربما لكثرةِ مهامها وانشغالها بأمورِ الحياةِ، وسعتْ كثيراً كيْ توفرَ لي فرصةً جيدةً للتعليمِ، فقُبلتُ في إحدى المدارسِ بعدَ أنْ توسلتْ أمي

آلافَ المراتِ لمديرِ المدرسةِ كيْ يقبلَني، وأقسمتْ على أنْ تدفعَ مصروفاتِ المدرسةِ.. و كانتْ مدرسة داخلية، متسخة، مليئة بأولادِ الفقراءِ مثلنا.. لقدْ آلمني أنْ أرى نفسي أنتمي لتلكَ الفئةِ البسيطةِ المسكينةِ من الناسِ؛ ولمْ أردْ أنْ أصدقَ أنَ تلكَ هيَ حقيقتي وحقيقتهمْ، فأغلبُنا كانَ يتيمًا، وأغلبنا لم يكنْ يملكُ عائلةً.. وكانَ هناكَ ولدٌ وحيدٌ يرتدي ملابسَ حسنةً، نظيفةً، ويحترمهُ المعلمونَ.. فقطْ لأنَ والدتَهُ كانتْ تدفعُ مالاً كثيرًا، لقدْ كانَ متكبرًا، متنمرًا، متغطرسًا، كانَ يعاملُ البعضَ بالقسوةِ ويعتدي على البعضِ الآخر بالضربِ، والتصقَ بهِ الصبيةُ الجبناءُ كيْ يقومَ بحمايتهمْ، وكوَّنوا رابطةً سخيفةً جمعتهمْ، وكوَّنا نحنُ أيضًا جماعتنا.. لقدْ بقيتُ في تلكَ المدرسةِ ستّ سنواتٍ، أيْ إلى أنَ انتهت المرحلة الابتدائية، ثمَ انتقلتُ لمدرسةٍ أخرى في المرحلةِ الإعداديةِ، ولكنها لمْ تكنْ أفضلَ بكثيرٍ من الأولى.. لقدْ كانتْ سنواتُ تعليمي مأساوية؛ فلمْ أحظَ بأيِ صديقٍ حقيقيٍ طيلة تلكَ السنواتِ، وكنتُ أشعرُ بالغربةِ والوحدةِ دائمًا.. ولكنْ في أحدِ الأيامِ؛ بينما كنتُ عائدًا في طريقي إلى المنزلِ، رأيتُ شابةً جميلةً،

شقراءَ، فاتنةً ولعوب.. آه يا ربي ما أجملها! إنَّ لها قوامًا ممشوقًا، ووجهًا دائريًا، وشفتينِ ممتلئتينِ، وعينينِ رائعتينِ خضراوينْ ساحرتينِ فاتنتينِ، تنظرانِ نظراتٍ تذيبُ المرءَ من جمالها، وتوقعهُ في حبها وهيامها .. كانتْ تُدعى (ويد)، وكانتْ أجملُ من كلِ الفتيات اللواتي رأيتهنَ في حياتي.. كانَ ذلكَ عندما صرتُ في المرحلةِ الثانويةِ، وكنتُ أبحثُ عنْ حبيبة لي، كما كانَ للشبانِ في سني.. لقدْ أردتُ فقطْ أنْ أشبههمْ، وأنْ أتغنى بجمالِ صديقتي وحبيبتي أمامهمْ، كانَ يكفيني أنْ أشعرَ أنني مثلُ الشبابِ المثقف، المتوسط ماديًا، الذي لا ينقصهُ شيءٌ، ومستعدٌ للزواجِ من الناحيةِ الماليةِ.. أردتُ أنْ أُشعرهمْ بأني أنا أيضًا قادرٌ على الزواجِ؛ للتباهي، لا لشيء آخر.. كانَ ذلكَ هوَ كلُ هدفي، ولكنْ حين رأيتُ (ويد) نسيتُ كل ذلكَ.. لقدْ استطعتُ أنْ أتأملها بعيني لدقيقتينِ وحسب، إنَ لمْ أفحصها لثانيتينِ فقطْ، فقد مرت بجانبي بسرعة كمرور الريح .. لمْ أبادلها حرفًا واحدًا، ولمْ تنتبهْ هيَ لوجودي أصلاً.. لقدْ أكملتْ سيرها في طريقِها إلى المنزلِ، فلمْ أستطعْ أنْ أمنعَ نفسي من تتبعها، حتى عرفتُ عنوانَها، ثمَ عدتُ

إلى المنزلِ، ولم أخبرَ أمي بأيِ شيء عنها، ولمْ أرها ثانيةً حتى بلغتُ الثانية والعشرين، ولكني لمْ أتوقفْ عنْ التفكيرِ فيها.

لقدْ عقدت صداقةً بيني وبينَ ابنةِ جارتي (أوليفيا).. إنها ليستْ على قدرٍ كبيرٍ من العلمِ أوْ الثقافةِ، ولا حتى جميلة.. ويمكن وصفها بأنها بلهاء ساذجةٌ، ولمْ أكنْ لأجتمعَ بها في علاقةٍ سخيفةٍ كهذهِ إلا لحاجتي للتباهي كما ذكرتُ من قبل، وقدْ كانتْ ضحيةً مناسبةً لذلكَ، إذْ كانَ من السهلِ فعلاً أنْ أوقعها في مصيدتي، وأنْ أقنِعَها فعلاً بأني أحبُها.. كانتْ تغني لي من نافذتها، وتأخذُ في الضحك والقهقهة، بعد أنْ يحمرَّ وجهها خجلاً، ظنًا منها أنَ صوتها يعجبني، بينما هوَ يشبهُ خوار البقرِ، ووعدتها بالزواجِ بعدَ التخرجِ، حتى تظلَ على علاقة بي، دون أنْ أخبرَ أمي بأني أشعرُ برغبةٍ في الزواجِ – كنتَ أرغبُ في ذلكَ فعلاً، ولكنْ من (ويد)، وليسَ من (أوليفيا) – كنتُ أعلمُ أنَ الزواجَ وأمي على قيدِ الحياةِ أمرٌ مستحيلٌ، فقدْ كنتُ أعتني بها رغمًا عنْ أنفي، وكان منزلنا مِلكٌ لها، والمالُ بيدها.. ما كانَ لها أنْ توافقَ على زواجي من امرأةٍ شابةٍ عاديةٍ، فقطْ لأني وقعتُ في غرامها، كانتْ تقولُ

لي: إنَّ عليَّ أنْ أتزوجَ امرأةً لها شأنٌ، كأنَ تكونَ من النبلاءِ مثلاً.. ولكنْ ما العلاقةُ التي كانتْ ستجمعُ بينَ حقيرٍ مثلي وبينَ امرأةٍ أرستقراطيةٍ، لا شك في أنَّ أمي كانتْ قدْ فقدتْ عقلها في أيامها الأخيرةِ.

حين توفيتْ أمي، أسرعتُ أنبئ (أوليفيا) بذلكَ، فجزعتْ، وحزنتْ لذلكَ حزنًا رهيبًا، لأنها كانتْ تحبُ والدتي حبًا شديدًا، ولكني ذكرتها بأنهُ سيكونُ بإمكاننا أنْ نتزوجَ أخيرًا، فكادتْ تطير من الفرحةِ، ولأنْ (أوليفيا) لمْ تكنْ تجيدُ القراءة، أطلعتها على ورقةٍ باليةٍ، كتبتها بخطِ يدي، مدعيًا أنَّ أمي هيَ من تركتها وصيةً لي، تأمرني فيها بالزواجِ من ابنةِ سيدةٍ تعرفها، وأنها ستلعنني ولنْ تسامحني إنَ لمْ أتزوجها، ومثلتُ الضيقَ، وقلتُ لها بكلِ جرأةٍ – أوْ بكلِ وقاحةٍ –: «إنني مستعدٌ لأنْ أعيشَ حياتي كلها في جهنم، بسببِ غضبِ والدتي علي، في سبيلك يا (أوليفيا).. ولكنْ ليسَ بإمكاني أنَ أُعرِّضكِ للخطرِ، وأنْ أُلقي بكَ في الجحيمِ معي، لأنَ أمي ستلعننا سوياً.» ولطيبةِ قلبها وسذاجتها، صدقتْ تلكَ الحجةِ

الدنيئةِ، فوعدتُها بأنْ أتزوجها إذا توفيتْ زوجتي قبلي، وأنْ أعيشَ معها بقيةَ عمري، ثمَ ودعتُها وداعًا حارًا.

ورغمَ أننا عشنا بقيةَ عمرنا في بيتين متقابلين، وقد كنتُ أراها في كلِ صباحٍ قبل انطلاقي إلى عملي؛ كانتْ تودعني بنظراتها الحارة، وبابتسامةٍ بريئةٍ، وكأنها كانتْ تقولُ لنفسها: «أرجو ألا يتأخرَ ذاكَ اليوم كثيراً..» ورغم أنها رغبتْ في الزواجِ مني، لمْ تحقدْ على (ويد) بعدما تزوجتها، فيما بعد.

لا أستطيعُ أنْ أشرحَ كيفَ تمَ الأمرُ، ولكنْ (ويد) لمْ تكنْ سعيدةً بمعرفتي، ولا أرادتْ الزواجَ مني، حتى خدعتُ والدَها، الذي فقدَ نعمةَ البصرِ، ولمْ يستطعْ أنْ يرى ما في وجهي من شرٍ، وأكدتُ له: أنيِّ سأجلبُ (لويد) هدايا كثيرةً، وأني سأجعلها تعيش حياةً هانئةً!، وأستحي أنْ أقولَ لكمْ أني اشتريتُ عدةَ هدايا فاخرةٍ فعلاً، بمالِ (أوليفيا)، بعدَ أنْ رويتُ لها حكايةً ملفقةً هيَ الأخرى، مدعيًا أنيِّ مدينٌ لأحدِ الجنرالاتِ بالمالِ، وأنهُ سيضربني وسيقضي على شرفيٍ، وسيقاضيني أمام المحكمةِ، رافعاً قضية قدْ تتسببُ في قطعِ رأسي، وإني بحاجةٍ ماسةٍ إلى ذلكَ المالِ.. ورغم أنها كانتْ فقيرةً،

ولمْ تكنْ تملكُ إلا سلسلةً صغيرةً من ذهبٍ؛ ورثتها عنْ جدتها؛ باعتها لأجلي وأعطتني مالها، فاشتريتْ (لويد) خاتمًا من ألماسِ وإنْ يكنْ بسيطا أوْ حقيرًا بالنسبةِ للخواتم الأخرى، التي تدلُ فعلاً على العظمةِ والرقيِ.. وفي الحقيقةِ: فهو لا يضمُ إلا ألماسةً صغيرةً لا تكادُ تُرى .. وإن صح القول: فقد كانت ألماسة مزيفة.

وكذلكَ تمَ الزواجُ بعدَ أنْ فرحتْ (ويد) بالهديةِ، ورضتْ عنها، وأحسَ والدُها بالرضا والسعادةِ في نبرةِ صوتها، فبارَكَنا، وذهبنا للكنيسةِ لإتمامِ الزواجِ بعدها بيومينِ وحسب..

أعلمُ أنَ عليَّ أنْ أشعرَ بالخزي والعارِ من وضاعتي، ومن استغلالي لطيبةِ قلبِ (أوليفيا)، ولكنَ العالمَ يرى أنَ طيبةَ القلبِ سذاجةٌ وتفاهةٌ مفرطٌ فيها، وأنَ على المرءِ أنْ يكونَ حذرًا ولوْ صارَ قاسيًا.. أظنهُ ذنبَ (أوليفيا).. وليسَ ذنبي، ألستُ محقًا؟.

الليلةُ الرابعةُ

هذهِ هيَ الليلةُ الرابعةُ، وهيَ ليلةٌ عاصفةٌ في الحقيقةِ.. فإن السماء قد صارت ملبدةً بالغيوم، والسحب لا تكف عنْ إنزال المطر، والرياحُ تتخبطُ في النوافذِ، والرعدُ يفزعنا في كلِ دقيقةِ والأخرى، وكأنهُ يسعى هوَ الآخرُ لمعرفةِ الحقيقةِ مني.. إنني أفرطُ وأسهبُ في الحديثِ يا سادة، ولكني قدْ سئمتْ حقًا؛ فأنا اليومَ أعاني ألمًا شديدًا لا طاقةَ لي على تحملهِ، ولا يمكنني أنْ أصبرَ على ما يراودني اليومَ من هلاوس.. يخيلُ لي أنَ هذا ليسَ إلا مجرد أوهامٍ، وأحلامٍ، ولكن هذا مستحيلٌ، بلْ إنهُ مرعبٌ وغيرُ قابلٍ للتصديقِ، لا يعقلُ أنَ شكّي وخوفي وقلقي هُمْ من دفعوني لارتكابِ تلكَ الفعلةِ الشنيعةِ.. لا، لا يعقلُ، أنتمْ لا تفهمونَ شيئًا.. أجلْ؛ لأني لمْ أوضحْ أيُ شيءٍ، لمْ تكنْ الأحلامُ الماضيةُ إلا هذرًا سخيفًا مني، ومحاولةً ساذجةً للإفصاحِ عما بداخلي، وحيلةً دفاعيةً تافهةً .. لينزل غضبُ اللهِ على من ألهمني تلكَ الفكرة السخيفة!

من ذاكَ الذي ظنَ أنَ الكاتبَ بإمكانهِ أنْ يتخلصَ من مشاعرهِ دفعةً واحدةً بسيلٍ بسيطٍ من كلماتهِ؟! من ذاكَ الذي ظنَ أنَ الأوراقَ والحبرَ كافيانِ ليفصح المرءُ عنْ مكنونِ فؤادهِ؟! إنها لحماقةٌ، ولوْ كتبَ كاتبٌ ما ألفَ عملٍ لما استطاعَ أنْ يفصحَ تمامًا عنْ أفكارهِ واعتقاداتهِ وأحاسيسهِ.. إنها لكتبٌ سخيفةٌ، كتبُ علمِ النفسِ ذاكَ.

آهٍ! ليسامِحني الربُ! سوفَ أفصحُ عنْ كلِ ما أعرفهُ؛ منذُ نعومةِ أظفاري إلى يومنا هذا، لا يوجدُ ما يمكنُ إخفاؤهُ بعدَ الآنَ.

حينَ كنتُ صغيرًا، عقدتُ علاقة صداقةٍ بيني وبينَ ذاكَ الولدِ الذي نعتُهُ بالتكبرِ والغطرسةِ، ومن وصفتهُ بالقسوةِ والجفاءِ؛ بمقابلِ قطعةِ جبنٍ صغيرةٍ، لأسُدَّ بها رَمقي، فبعتُ شرفي لقاء شريحةِ جبنٍ، واستمرتْ علاقتنا السامةُ حتى كبرنَا، فكانَ يأتي لزيارتي كلَ أسبوعٍ، حتى بعدِ زواجي، ويقرعُ كأسَهُ بكأسي، رافعًا صوتهُ قائلاً: «أتمنى لكَ دوامَ الصحةِ وإنجابَ ذريةٍ صالحةٍ.. نخبكَ يا (فورد)» ثمَ نلعبُ بالورقِ برفقة (ويد) التي لمْ تكنْ تملُ من حديثِ ذلكَ الضيفِ – الدمثِ الرقيقِ – كما كانتْ تقولُ عنهُ.. وأحيانًا أخرى

كنا نقهقِهُ ونضحكُ على حكايةِ الجبنِ السخيفةِ تلكَ، ثمَ نختمُ حوارنا بشكرِ الربِ على " الصدفةِ المضحكةِ" التي جمعتنا وجعلتنا صديقينِ وفيينِ.. ورغم ذلكَ لمْ أرتحْ لهُ أبدًا، ولمْ أشعرْ بالاطمئنانِ لشخصِهِ، فقدْ كانتْ لهُ نظراتٌ مرعبةٌ أحياناً، خاصةً إذا شردَ ذهنهُ، ولاحظت تحديقهُ بزوجتي في العديدِ من المراتِ، ولكنْ كلما كلمتهُ وحاولتُ جذبَ انتباههِ للتوقفِ عنْ هذا الأمرِ، اكتشفتُ أنَّ ذهنَهُ قدْ شردَ، وأنهُ لمْ يقصِدْ فعلاً أنْ ينظرَ لها تلكَ النظرة السيئة، واتفقنا في كلِ مرةٍ على ألا نُشعِرَ (ويد) بشي.

لقدْ كانتْ عيناهُ رماديتينِ، تنظرانِ نظراتٍ ثاقبة، ملهبة، فاتنة، شهوانية بمعنى أصح، ولقد كان مغوياً متلاعباً، سيءَ الأخلاقِ، ولم يكمل دراسته، وكانَ يعتقدُ أنَ المالَ هوَ أهمُ شيءٍ في حياتنا، ويقول إن الفقيرَ تعيسٌ لأنهُ لا يملكُ مالاً؛ قدْ يكونُ قوله صحيحًا، ولكنَ التعاسةَ لا تأتي بسببِ المال، وإنما بسببِ الألمِ والعذابِ النفسيِ وحدَهُ.

إن الفقيرَ لا يتألمُ لفقرِهِ، وإنما يشتعلُ حسرةً على أطفالهِ الجوعى، الذينَ يبكونَ في كلِ ليلةٍ بسببِ الألمِ الذي يشعرونَ بهِ في

بطونهمْ.. لقدْ حاولتُ أنْ أقنعَهُ بذلكَ، ولكنهُ ظلَّ مصممًا على عبادةِ المالِ، حتى جعلَ زوجتي تُفتتنُ بفكرِهِ العقيمِ – لقدْ كانَ قادراً على أنْ يقنعكَ بأفكارهِ بسهولةٍ، ومرجع ذلك هو كلامهُ المعسول، الذي يُخفي وراءَهُ شيئًا خبيثًا –.

وفي مرةٍ بعد انتهاء زيارتهِ لنا، قالتْ لي زوجتي صراحةً أنها تشعرُ بالبؤسِ، لأننا لا نملكُ مالاً وفيرًا، ولأنَ حياتنا لا تشبهُ حياةَ صديقِنا الغنيِ، الثريَ، الذي يرتدي الملابسَ الفخمة، ويدخنُ بحضورنا أغلى أنواعِ السجائر، ويهدينا في كلِ زيارةٍ زجاجةَ خمرٍ فاخرةٍ.

لقدْ ظننتُ في البدايةِ أنَ هذا كرمٌ منهُ، ولكني أدركتْ فيما بعد أنهُ إنما أرادَ أنْ يُشعرنا بالذلِ والمهانةِ والفقرِ؛ لأننا لنْ نستطيعَ يومًا أنْ نشربَ خمرًا فاخرًا كهذا الذي يجلبهُ لنا، وأننا ما كنَّا لنشربَهُ لولا كرمه ورأفته بنا .. لقدْ أرادَ أنْ يقومَ بشراءِ أرواحنا، وأنْ يَفتِنَ لُبَّنا بفكرِهِ المنحرفِ.

إنَ هذا كلهُ لا يساوي أيَ شيءٍ، بجانبِ الصاعقةِ الكبرى، فمنذُ شهرٍ وأربعةِ أيامٍ بالتمامِ والكمالِ، كان عيد ميلاد زوجتي الذي يلي

عيد رأس السنة الميلادية بأسبوع، ولأني كما ذكرتُ لكمْ مسبقًا؛ كنت أعمل مدرساً، فكنت أخرج مساءً في بعض الأيام لألتقي بعضَ الطلبةِ لأشرحَ لهم بعضَ ما غَمُضَ عليهم من دروسٍ مقابلَ بَعض المالِ، فتهيأتُ يومئذٍ للخروج كأني ذاهبٌ للعملِ فعلاً، ولكني لمْ أفعلْ ذلكَ، وإنما ذهبت لشراءِ هديةٍ لزوجتي؛ لتكون مفاجأة لها، فاشتريتُ لها علبةً كبيرةً من الشوكولاتة، بعد أنْ ادخرتُ لها المالَ لشهورٍ طويلةٍ، كيْ أستطيعَ شراءَها، وكيْ أريها أننا قادرانِ على شراءِ المأكولاتِ والمشروباتِ الفاخرةِ، وأنَ حالتنا الماديةَ لا تدعو إلى الحزنِ وجحدِ ما لدينا من نعمٍ أخرى، واشتريتُ لها باقةَ وردٍ نادرةً، غاليةَ الثمنِ، بينما كانَ بإمكاني أنْ أشتريَ لها وردةً بسيطةً وحسب.

لقدْ أردتُ أنْ أكافِئها، وأنْ أُعَبِّرَ لها عنْ امتناني وحبي بطريقةٍ مختلفةٍ، وظننتُ يومها أنَه بإمكاني أنْ أُشعِرَها بحبي، حين أبوحُ لها بمشاعري الصادقةِ الطاهرةِ، وكانتْ تسعدُ بذلكَ فعلاً، ولكنْ وأسفاهُ! فلقد توقفت عن ذلك بعدما أقنعها صديقي بطريقةٍ خبيثةٍ أنَ على الزوجِ أنْ يشتريَ العديدَ من الهدايا لزوجتهِ، كيْ يعبرَ لها

عنْ حبهِ، وأنهُ إنَ لمْ يفعلْ ذلكَ فهوَ لا يحبها؛ عنْ طريقِ قصِ حكايةٍ ملفقةٍ مزورةٍ، عنْ الهدايا التي كانَ يشتريها لزوجتهِ قبلَ وفاتها! هوَ الفقيرُ، الذي لمْ يكنْ يملكُ إلا قروشاً بسيطةً تسمحُ لهُ بشراءِ قطعةِ خبزٍ يابسةٍ وشريحةِ جبنٍ فاسدةٍ، بينما كنتُ أنا وبقيةُ الأطفالِ معدمينَ تماماً! لقدْ حكَّمتُ عقلي، وأمعنتُ التفكيرَ جيدًا، فأدركتُ أنَ والدتهُ كانتْ تعاني الأمرين كيْ تجنيَ ما تطعمهُ بهِ، وأنهُ كانَ فقيرًا مثلنا، ولكنهُ ظلَ يحبُ أنْ يتباهى بما لديهِ، غيرَ مبالٍ بمشاعرنا نحنُ المعدمونَ، فكنا نظنُ أنهُ غنيٌ ثريٌ منذُ ولادته.

وسألتُ عنْ العلاقةِ التي جمعتهُ بالكونتيسةِ التي تزوجها فيما بعد، فعلمتُ أنهُ إنما كانَ يتذللُ لها، وينفذُ كل ما تطلبهُ منه كخادمٍ ذليلٍ مهانٍ، لأجلِ نيلِ ثقتها، وإيقاعها في مصيدةِ الحبِ المزيفِ، حتى إذا ظنَتْ أنهُ نبيلُ القلبِ، وافقتْ على الزواجِ منهُ، رغمَ وضعهِ الماديِ البسيط، ولكنها ندمتْ ندمًا شديدًا، بعدما جردها من مالها؛ ولمْ تتحملْ ذلكَ، فماتتْ بسكتةٍ قلبيةٍ.. أنا لستُ ضدَ فكرةِ الزواجِ من شخصٍ متوسطٍ ماديًا، ولكني ضد الانبهارِ

والانجرافِ وراء المشاعرِ، فلو أنَ الكونتيسة فكرتْ مليًا في شخصهِ، لما وجدتْ فيهِ أي مميزاتٍ تدعو إلى الزواجِ منهُ.. أمَّا لوْ كانَ غنيًا؛ فكانَ بالإمكانِ تبرير حماقتها وسذاجتها حينئذ.

على كلٍ، لقدْ عدتُ للبيت بهديتي الجميلةِ، ووقفتْ أمامَ بابِ المنزلِ، وأنا أفكرُ مليًا في جملةٍ ترحيبيةٍ مبهجةٍ إيجابيةٍ، لأجعلها تتحمس، أوْ طريقةٍ ظريفةٍ أقولُ لها بها أني لمْ أذهبْ للعملِ لأجلها، ولأجلِ الاحتفال بعيد رأس السنة، وقضاءِ الليلة معها، لنشاهدَ فيلمًا مثلاً، أوْ لنلعبَ الورقَ كما كانتْ تحبُ.. لقدْ أردتُ أنْ أشكرها وأنَ أشجعها، وأنْ أقولَ لها أنها زوجةٌ مثاليةٌ، وأنَ جميعَ الرجالِ يتمنونَ لوْ يتزوجونَ امرأةً بمثلِ مواصفاتها، وأنَ علينا أنْ نصليَ وندعو الربَ كيْ يرزقنا بأطفالٍ.

لكنْ أثناء تفكيري هذا، سمعتُ صوتًا غريبًا، فلقدْ كانتْ تُقهقِهُ وتضحكُ بسعادةٍ غريبةٍ.. قلتْ لعلها سمعتْ أمرًا مضحكاً، أوْ لعلها كانتْ تتحدثُ إلى صديقةٍ لها من النافذة، فلقدْ كانتْ تحبُ أنْ تفعلَ ذلكَ أحياناً.. ولكني سمعتُ صوتَ رجلٍ معها، فترددتْ وقلتُ: لعلهُ صوتُ أحدِ جيراننا، اختلطَ في أذني بصوتها، ولكن

كلا، لمْ يكنْ كذلكَ، لقدْ نادها نفس الصوتِ باسمها.. وكنت أعرف ذاك الصوت جيدًا.. ثم قلت في نفسي بعد أن ازدادت قهقهتها التي دلت على شعور طافح بالنشوة والسعادة: «لا، غيرُ معقول .. هذا مستحيل!» وقررتُ أن أدخلَ البيت، لأمنعَ تلكَ الوسوسةِ، فقدْ كنتُ أعلمُ أنَ صحتي العقليةَ لا تسعفني كثيرًا، وأني أسمعُ أشياءً لا أصلَ لها في الواقعِ، وأني أعاني من الهلوسةِ السمعيةِ.. ففتحتُ البابَ ببطءٍ دون أن أحدث صوتاً، متوخيًا الحذرَ، وأخذتُ أجولُ ببصري في البيت من الفتحةِ الصغيرةِ التي فتحتُها من البابِ، فما أبشعَ ما رأيتهُ حينذاكَ!، لقدْ رأيتُ زوجتي برفقةِ ذاكَ الوغدِ، لقدْ رأيتهما سوياً، وشهدتُ خيانتهما بأمِ عيني، لقدْ صعقتُ، وتجمدتُ في مكاني، ولمْ أدرِ ما كانَ عليَّ فعلُهِ.. وتمنيتُ فيما بعد لوْ أنيِّ دخلتُ البيتَ وأحدثتُ جلبةً وضجةً، وأمسكتُ بهِ في وضعيةِ الصديقِ "الخائنِ"، ولكني لمْ أفعلْ ذلكَ، وإنما أغلقتُ البابَ، وذهبتُ للتسكعِ في الشارعِ، دونُ أنْ أدريَ إلى أينَ اقتادتني قدماي، ومكثتُ هناكَ طيلةَ وقتِ العملِ، بلْ وزدتَ عليهِ نصفَ ساعةٍ، حتى أضمنَ أني إذا رجعتُ للمنزلِ لنْ أرى ذاكَ العشيقِ

في شقتي مجددًا.. لقدْ أمهلتها نصفَ ساعةٍ إضافيةٍ بأكملها، لتعيدَ ترتيبَ الشقةِ، وكأنَ أحدًا لمْ يأتِ، ولكنَ قلبي آلمني كثيرًا، ولمْ أستطعْ أنْ أصدقَ، وأخذتُ أفكرُ مليًا في صحةِ ما رأيتهُ وما سمعتُهُ، قائلاً لنفسي: «أيعقلُ أنْ تكونَ حالتي العقليةُ متدهورةً إلى هذهِ الدرجةِ؟ أيمكنْ أنْ يكون ما رأيتُه وسمعتُهُ من الهلوساتِ البصريةِ والسمعيةِ دفعة واحدة؟!»، ثمَ تركتُ باقة الأزهارِ على الكرسيِ الذي كنتُ جالسًا عليهِ، واتجهتُ في طريقي إلى المنزلِ ثانيةً، بعدما رأيتُ ساعتي، فوجدتها السابعةَ مساءً.. لقدْ وقفتُ أمامَ الشقةِ، وتأكدتُ من أنَ الأصواتَ كلها قدْ اختفتْ، ثمَ فتحتُ البابَ، ورأيتُ زوجتي جالسةً على كرسيٍ، تقرأ كتابًا عنْ الحبِ، ولاحظتُ أنها هادئةٌ بشكلٍ مخيفٍ، وكأنها كانتْ تحاولُ أنْ تخفيَ شيئًا ما.. فوضعتُ علبةَ الشوكولاتةِ على الطاولةِ، دونَ أنْ أبادلها كلمةً واحدةً.. وظلتْ ممعنة النظرِ في كتابها ذاكَ، لا تلفظُ حرفًا، ولا تنبسُ ببنتِ شفةٍ!، فقلتُ بصوتٍ مسموعٍ: «إنني متعبٌ كثيرًا يا (ويد)، ومرهقٌ نفسيًا وعصبيًا، وأتخيلُ أشياءً عجيبةً.. إنَ الكوابيسَ لا تفارقني .. ولكني لا أتكلمُ عنْ الكوابيسِ التي نراها في منامنَا،

وإنما أتكلمُ عنْ تلكَ الهلاوسِ التي أراها وأسمعها كلَ يومٍ.. لقدْ بتُ عاجزًا عنْ التمييزِ بينَ الواقعِ والخيالِ، وأشعرُ أنِّي أكادُ أُجَن.. لقدْ اشتريتْ هذهِ الشوكولاتةِ بنيةِ الاحتفالِ بالعامِ الميلاديِ الجديدِ، فنحنُ لمْ نحتفلْ.. كما تعرفينَ، ولكني أشعر وكأنَ هناكَ شيئا ناقصاً.. وكأني نسيتُ شيئا آخر، أوْ وكأنَ هناكَ حدثاً مهماً آخرَ اليومَ، لا أستطيعُ تذكرهُ.. ما الذي يلي رأسَ السنةِ الميلاديةِ بأسبوعٍ؟ أأنا أهذي كثيرًا يا (ويد)؟» فلمْ تجبني، فعقبتُ: «لماذا تفوحُ رائحةُ السجائرِ في الشقةِ يا زوجتي؟!، هلْ جاءَ زائرُ ما؟»

«لا، ولكني خرجت لشراءِ بعضِ الطعامِ، وطلبتُ من حارسِ البيت المجاور أنْ يساعدنيَ في حملِ الأكياسِ، وأنْ يضعها في المطبخِ، فكانَ يدخنُ سيجارةَ حينذاكَ، ودخلَ بها الشقة.. لذلكَ تفوح رائحةُ السجائرِ» كذلكَ قالتْ، وبعدما ارتديتُ ملابسَ المنزلِ؛ شغلت فيلماً على جهاز تشغيل الشرائط، وأكملتُ سهرتي دونَ أنْ ألحظَ شيئًا مريبًا في تصرفاتِها، وكأنها كانتْ معتادةً على ذلكَ، فلمْ يبدُ عليها شيءٌ من القلقِ مثلاً، ولا شعرَتْ بالخوفِ من اكتشافِ أمرها.. لقدْ تصرفتْ ببرودِ تامٍ، وكأنها لمْ تذنبْ في أيِ شيءٍ.

وحين صرنا في منتصفِ الليلِ؛ تجهزتُ للنومِ، وغسلتُ أسناني، ووضعتُ رأسي على الوسادةِ، بينما كانتْ لا تزالُ تمشِّطُ شعرها وتربطهُ قبلَ النومِ، فلمْ أستطعْ أنْ أتخيلَ أني قدْ أنام فعلاً بعدَ تلكَ الصدمةِ التي تعرضتُ لها، وأني سأُبقِي بجانبي خائنةً، فقلتُ لها بصوتٍ أجش مرهق الأعصابِ: «كان يسعدني أنْ أشعرَ أنَ هناكَ من يظلُ بانتظاري ويسألُ عنْ ميعادِ عودتي من العملِ في كلِ يومٍ.. لقدْ ظننتهُ شوقاً، ولكني أدركتْ فيما بعد أنهُ ما كانَ يهمُ ذاكَ الشخصِ لمْ يكنْ أنا، وإنما كانَ معرفة الميعادِ الذي من الواجبِ عليهِ أنْ يصرفَ فيهِ حبيبهُ، حتى لا يعرف الزوجُ الأبْلَهُ بتلكَ الخيانةِ الفظيعةِ»

فهمتْ (ويد) مقصدي، ولمْ تجبني، فنظرتُ لها بعينينِ تقدحانِ شررًا وغيظاً، وفجأةً وثبتُ عنْ فراشٍي، واقتربتُ منها، وقلتُ لها: «لقد قابلت زميلاً قديماً لي، وقد تفوه بتلك الكلمات بأسى بعد أن حدثني عنْ خيانةِ زوجتهِ لهُ، فسامحيني لأنَ مزاجي تعكر، ولمْ أستطعْ أنْ أكبحَ غيظي أمامكِ.. إنني أعلمُ أنكَ مريضةٌ ومتعبةٌ، ولا تقوينَ على الردِ على كلِ جملةٍ تافهةٍ أتفوهُ بها.. ولكني أحمد

اللهْ على نعمتهِ التي مَنَّ عليَّ بها، وهيَ أنْ جعلكِ زوجتي» ثمَ ضممتها إليَّ، وكدتُ أقبِّلُ رأسها، ولكنْ حين لمحتْ الابتسامةَ التي لاحتْ في وجهها، وظهرتْ على شفتيها، لمْ أستطعْ أنْ أتمالكَ نفسي، وأنْ أسمحَ لها بأنْ تسخرَ مني أكثرَ من ذلكَ، فتظاهرت بأنيِّ سأُقبّلُ رأسها فعلاً، حتى إذا أغلقتْ عينيها مطمئنةً، من أنَ كلَ شيءٍ قدْ مرَ بسلامٍ، أسرعتُ فأمسكتُ بها من رقبتها، ففزعتْ، ونظرتْ لي باستغرابٍ محاولةَ تخليصِ نفسها من قبضتي، وظنتْ أني كنتُ ثملاً، ولكني قلتُ لها بحنق: «أنتِ لا تستحقينَ هذهِ القبلةِ يا (ويد) لا تستحقينَ شرفَ أنْ أتباهى وأتفاخرُ بكِ، وكأنكِ تاجٌ أحملهُ على رأسي، أنا لا أريدُ قتلكِ انتقاماً لشرفي، وإنما أريدُ تخليصكَ من العهرِ الذي دنَّسَ عفَتكِ وطهارتكِ، ومن الشيطنة التي سيطرتْ عليكِ، بعدَ أنْ كنتِ ملاكًا .. أنا لا أقتلكِ يا زوجتي، وإنما أقتلُ فكرةً ومبدأً» ثمَ لاحظتُ أنَ وجهها قدْ تحول إلى اللون الأزرق من الاختناقِ، وأنها لمْ تّعدْ قادرةً على الكلامِ، فطبعتُ قبلةً رقيقةً على خدها، أثناءَ خنقي لها، حتى إذا انقطعَ نفسها تمامًا؛ حملتها بكلتا يدي على السريرِ، وقمت بتغطيتها بذاكَ

الغطاءِ الرديءِ، ثمَ نمتُ بجانبها على الأرضِ في تلك الليلة، حتى حقنتها في اليوم التالي بالفورمالين[٤]، الذي تنبعث منه تلك الرائحة النفاذة، وصرت أنام على الأرض بجانب جثتها الممددة على الفراش، واستغفرها في كلِ لياليّ .. لقدْ طلبتُ من زوجتي الحنونةِ المغفرةَ، وليسَ من زوجتي الخائنةِ العاهرةِ .. لقدْ طهَّرتها بانتزاعِ روحها من جسدها، بقتلي لها، ولكني لمْ أقتلْ روحَها الطيبةَ الطاهرةِ، وإنما قتلتُ بذرةَ الشرِ التي قبعتْ في قلبها عميقًا..

إنَ ما يعذبني الآنَ، ليسَ الجريمةَ التي ارتكبتها، أجل، إنني أعترفُ بأنهُ ما كانَ علي أنْ أقتلها، حتى لوْ خانتني.. كانتْ ستلعنُها الملائكةَ، وسيطردها الله من رحمتهِ، وكانَ ذلكَ كافياً لي،

[٤] الفورمالين (بالإنجليزية: Formalin) واسمه العلمي فورماليهايد Formaldehyde، هو محلول كيميائي عديم اللون قابل للاشتعال ناتج عن ذوبان غاز الفورمالديهايد الذي اكتشفه عالم الكيمياء الألماني اوغوست ويلهام فون هوفمان عام ١٨٦٧، وهو من المركبات الكيميائية ذات الرائحة الكريهة.
يستخدمه الأطباء للحفاظ على الأنسجة من التلف، ويستخدمه أيضاً أطباء الأسنان للتخدير الموضعي.
ويذكر أنه أُستخدم من ضمن الطرق التقليدية للحفاظ على الجثث من التعفن وتحنيطها، حيث إن مادة الفورمالديهايد تجعل الجسم هشاً ومتيبساً، ومن أبرز القبائل التي تحفظ الجثث بالفورمالين هي قبيلة التوراجا، خصوصاً وأن تلك القبيلة تقوم بترك جثثها دون دفن لمدة قد تصل لعشر سنوات، لحين أخذ القرار لدفن موتاهم، عن طريق وضعهم في أحد الكهوف.

ولكنَ طمعي هوَ من أدى إلى الوقوعِ في تلكَ الخطيئةِ، التي لا كفارةَ لها إلا قتلي .. إنني أؤمنُ بأنهُ لا يوجدُ ما هوَ أفظعُ وأبشعُ من القتلِ؛ فإنَ القتلَ يعني أنْ تموتَ كلُ المشاعرِ الإنسانيةِ بقلبِ الإنسانِ؛ حتى يجرؤ على ارتكاب فعلةٍ كهذه .. فماذا تكونُ قيمتهُ بعدَ الآنَ؟ وماذا تكونُ قيمتي بعدَ أنْ صرتُ قاتلاً؟ وما المثالُ السامي الذي عسى الطلاب يستخلصونهُ منيَ؟ وبماذا أفادني التعليمُ وقراءةُ الكتبِ والأدبِ.. بعدَ أنْ تجردتُ من إنسانيتي؟.

لقدْ كنتُ أنا المذنب، وليسَ ذاكَ الوغدَ ذا شريحةِ الجبنِ، ولا زوجتي التي ذهبتْ ضحيةً بريئةً .. حتى لوْ خانتني، فقدْ كنتُ أنا السبب، رغمَ أني ظللتْ مخلصًا لها في مشاعرِ الحبِ .. لقدْ كنتُ أنا السببُ، لأنني وعدتها بالحياةِ الهانئةِ، بينما لمْ تلقَ مني إلا العذابَ والجحيم، لأني وعدتها بالمالِ الوفيرِ، الذي لمْ تجدهُ إلا في جيبِ صاحبي، وأحزن بعدَ ذلكَ كلِه إنَ وهَبتْ نفسَها لغيري .. ألا ما أقسى قلب البشرِ! وكيفَ استطعتُ أنْ أقتلها بيدي، كيفَ فرطتُ بها دونَ أنْ أتأكدَ من إذا كانت قد خانتني فعلاً، أمْ أنَ رأسيَ المريضَ هوَ وحدَهُ سببُ كلِ هذا العذابِ؟ وكيفَ يمكنني أنْ

أعرفَ الحقيقةَ الآن، لأريحَ بها ضميري؟ فقدْ ذهبتْ زوجتي.. ولمْ يعدْ هناكَ ما بإمكاني أنْ أعيشَ لأجلهِ.

لقدْ تساوتْ كلَ الأمورِ بنظري، ولا توجدُ إلا طريقةً واحدةً لمعرفةِ الحقيقةِ، التي يتغاضى ذاكَ الوغدِ عنها، إنهُ يريدُ أنْ يجعلنيَ ذليلاً لهُ، وأنْ أتوسلَ إليهِ كيْ يخبرنيَ بالحقيقةِ، كيْ أعلمَ حقاً أكنتُ أتخيلُ قهقهاتٍ وهلوساتٍ غيرَ حقيقيةٍ، أمْ أني كنتُ محقًا فيما رأيتهُ من فعلة شنيعةً .. إنهُ يريدني أنْ أتوسلَ إليهِ، وهوَ عدوي! يريدني أنْ أبيعَ شرفي، وأنْ أظهرَ لهُ ضعفيْ، ولهذا يتغاضى عنْ معرفتهِ بموتها، رغمَ أنهُ الوحيدُ الذي يعرفُ هذا الأمرِ؛ لأنهُ موقنٌ من أنهُ هوَ السببُ .. لا، أنا السببُ، أنا السببُ في هذا كلهُ.

خاتمةٌ

لم يستطعْ السيدُ (أوينْ) أنْ يتمالكَ أعصابهُ، وأنْ يصمدَ أمامَ تلكَ النوبةِ الجديدةِ من الهلاوسِ والقلقِ، لقدْ فرَّط في حياتهِ بطلقةِ مسدسٍ أطلقها على رأسهِ، التي استقرتْ بعدَ موتهِ على مكتبهِ، وتركَ رسالةً صغيرةً، كتبَ فيها ملاحظةً أليمةً، قالَ فيها: «سنظلُ نتألمُ في هذهِ الحياةِ من أولِ يومِ من ميلادنا، إلى آخرِ يوم ننهيهُ بطلقةٍ من مسدسنا.. كلا، إنَ البؤسَ لنْ يختفيَ أبدًا، ولكنْ يكفيني خزيًا، أنّي استسلمتْ لهُ، ولمْ أستطعْ أنَ أجابههُ، وذلكَ هوَ الفرقُ بينَ المنتحرينَ الضعفاءِ، والمؤمنينَ الأقوياءِ».

طرقتْ الآنسةُ (أوليفيا) بابَ منزلهِ، لتسأل عنْ حالتهِ، ولتتعرفَ على آخر أخبارهِ، بعد أنْ اختفى تمامًا عنْ الأنظارِ لمدةِ أربعةِ أيامٍ، ولكنهُ لمْ يفتحْ لها، فخافتُ عليهِ من أنْ يكونَ قدْ أصابهُ مكروهٌ، ولمَّا لاحظتْ ضعفَ البابِ وإمكانيةَ كسرهِ؛ ركلتهُ ركلةً قويةً ثمَ دخلتْ، فاستنشقتْ رائحةً الفورمالين الشنيعة، ورأتْ جثةَ

السيدةِ (ويد) على السريرِ، إذ كان قد أزاح الغطاء عنها ليراها ويقبلها لمرةٍ أخيرةٍ، فجزعتْ، ثمَ لمحتْ حبيبها القديمَ، السيدُ (فوردْ أوينْ)، نائمًا على مكتبهِ، وبجانبهِ زجاجةُ شامبانيا، فخطرَ على بالها أنَ زوجتهُ قدْ توفيتْ منذُ أربعةِ أيامٍ، وأنهُ لا يخرجُ لإفراطهِ في الشرابِ، محاولاً تخطي حُزنهُ على موتها، فلما هزتهُ؛ سقطتْ رأسهُ عنْ المكتبِ، ولاحظتْ تيبُس يديهِ وبرودتهما .. حدقتْ في وجههِ، وقربتْ ضوءَ الشمعةِ منهُ، فلما رأتْ ثقبَ الرصاصةِ مستقراً في رأسهِ، وآثارَ الدمِ على قميصهِ، وعلى المكتب؛ أطلقتْ صرخةً عاليةً.. ولمْ تستطعْ أنْ تتجاوزَ ذلكَ، فأمسكتْ بالمسدسِ الذي كانَ ملقى على المكتبِ، وأطلقتْ على نفسها رصاصةً أخرى، ختمتْ بها حياتَها، بعدَ أنْ فقدتْ أعزَ ما كانَ لديها.. ألا وهوَ السيدُ (أوينْ)، الذي لمْ يقدرُها حقَ قدرِها، واستخفَ بها واستغلها، لأجلِ امرأةٍ خانتهُ في نهايةِ المطافِ .. آهٍ يا (أوليفيا) المسكينةَ.. من حسنِ حظكَ أنك متِ قبلَ أنْ تعرفي تلكَ الحقيقةَ المرةِ.